رواية

كمال رحيم

وكسة الشاويش

دار الشروق

وكسة الشَّاويش

كمال رحيم

عن الرواية..

أنا عادل حسَّان العطفي..

وبسبب فعلة نكراء أقفُ الآن خلف القضبان الحديديَّة لقاعة الجنايات بمحكمة بورسعيد، الكلُّ يصفُ ما فعلتُ بهذا الوصف؛ الناس والشرع والقانون، أمَّا أنا فلا، صمَّمتُ وفعلت بضميرٍ مرتاح..

وإن جئنا لمورد الرزق وكيف أعيش، أنا عالة على زوج أُمِّي، فلا وظيفة في حكومة أو قطاع خاص ولا حِرْفة أُتقنها، باختصار إنسان فاشل، كنتُ شاطرًا في المدْرَسَة أثناء حياة أبي «حسَّان»، والله كنتُ أنْصَح تلميذ وحفظت «جدول الضرب» وأنا ما أزال في الرابعة ابتدائي، والأول على شهادة الابتدائية في بورسعيد كلها، وفي أولى وثانية إعدادي الأول أيضًا على الفصل، انكفأتُ على وجهي بعدها؛ مات أبي، الدائرة الضيقة التي تحيط به كانت في حالة استعجال وتحسب ما تبقَّى له من وقتٍ، تتمنى لو تخرج رُوحُه وترتاح منه، أمَّا أنا فالله أعلمُ بحالي؛ طوَّقني الخرابُ وأفلسَتْ رُوحي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إهداءٌ..

.. إلى حضرة الصُّول «حجازي»،

أبو نظَّارةٍ مشروخةٌ عدساتُها..

كُلُّنا أحببناك، وفُجِعْنا بوفاتِك المُفاجِئَة..

جِنازتُك كانت مَهِيبَةً يا عَمّ حجازي..

أوقَفَتْ حَيَّ «العَرَب» كُلَّه على قَدمَيْه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١

أنا عادل حسَّان العطفي..

وبسبب فعلة نكراء أقفُ الآن خلف القضبان الحديديَّة لقاعة الجنايات بمحكمة بورسعيد، الكلُّ يصفُ ما فعلتُ بهذا الوصف؛ الناس والشرع والقانون، أمَّا أنا فلا، صمَّمتُ وفعلت بضميرٍ مرتاح..

وإن جئنا لمورد الرزق وكيف أعيش، أنا عالةٌ على زوج أُمِّي، فلا وظيفة في حكومة أو قطاع خاص ولا حِرْفة أُتقنها، باختصار إنسان فاشل، كنتُ شاطرًا في المدْرَسَة أثناء حياة أبي «حسَّان»، والله كنتُ أنْصَح تلميذ وحفظت «جدول الضرب» وأنا ما أزال في الرابعة ابتدائي، والأول على شهادة الابتدائية في بورسعيد كلها، وفي أولى وثانية إعدادي الأول أيضًا على الفصل، انكفأتُ على وجهي بعدها؛ مات أبي، الدائرة الضيقة التي تحيط به كانت في حالة استعجال وتحسب ما تبقَّى له من وقتٍ، تتمنى لو تخرج رُوحُه وترتاح منه، أمَّا أنا فالله أعلمُ بحالي؛ طوَّقني الخرابُ وأفلسَتْ رُوحي..

مات..

لكن خُيِّل إليَّ أنه تحرَّك، خيالٌ كالحقيقة وصدَّقته عيناي، وانكفأتُ أصيح فيه وأهزُّه بجنون، لا فائدة مات! فعلًا ماتَ! وأستعيذ بالله الآن مما خرج على لساني وقتها وغلطي في المُسلَّمات..

كان هذا قبل اختبارات الشهادة الإعدادية بأسابيع ولم أحصل عليها بالتالي، فما المتوقَّع من نفسٍ معطوبة على مقعد الاختبار!

ولم أعُد أعرف طريق المدرسة بعد ذلك، طفشتُ أيضًا من البيت..

شالت وحطَّت بي الدنيا في أكثر من بلد، نمتُ في الشارع وفي الخرابات مع المُشرَّدين وبغُرَفٍ على السُّطُوح، وعملتُ في مَحالَّ لعصير القصب، وفي مَقاهٍ وغُرَز مشبوهة، وحملتُ ألواحًا من الخشب على كتفي وناديت على أمواسِ الحلاقةِ وأمشاطٍ

وولّاعات!

تلطَّمت..

وعندما رجعتُ إلى البيت من جديد كان عمري قد طارت منه عدَّة سنواتٍ، وأمي تزوَّجت..

وأشهد بالله أن زوجها الذي حلَّ محلَّ أبي كان كريمًا معي، لا يفعل زوجُ الأُمِّ أبدًا ما فعله هذا الرجل، لا تأفَّف مني ولا من شطحاتي على غير هدى أو سهومي بالساعات لا أتكلَّمُ ولا أردُّ على أحد، وكثيرًا ما كان يأخذني معه إلى ورشته (ورشة نِجارة ومَعرِض) بشارعٍ بِحَيّ العرب حيث نسكن، ظنَّ أنه يمكنه لعب دور الأب وإخراجي من كآبتي ومزاجي السوداوي، لم يكن يفعل ذلك مجاملةً لأُمِّي، من نفسه كان يهتمُّ ويساعد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

النهاية..

أوكل إليَّ حسابات الورشة، وأنا أغلط وهو يسامح..

لم تكن أغلاطي بالعَمْد، بالخطأ، جرَّاء سهو، عدم تركيز، زَلَّة قلم، فيما عدا مرة واحدة من قُرَابة أشهُر كان الأمر فيها ملتبسًا، لا هو بالعمد الصريح ولا يدخل في عِدَاد الخطأ، شيء أشبه بما وراء العمد بنصف خطوة..

فأنا الذي أحفظ «جدول الضرب» كالماء أعرف طبعًا أن مائة لوح خشب في ثلاثين جنيهًا لِلَّوْح الواحد تساوي ثلاثة آلاف، ومع ذلك قيَّدتُها في الدفتر: خمسة آلاف، غلطة، أصابعي سجَّلتها هكذا، ويبدو أنها سجلتها بالعمد كما لو أن جزءًا مني ـ الجزء الذي يرفض هذا الإنسان ـ غافلني قاصدًا إيقاع الضرر به، وعندما انتبهتُ لم أشأ تدارُك الخطأ، تركتُ الرقم كما هو، وثارت مشكلة بين زوج أمي ومَن يخصه هذا الرقم، هو في حالة غضب إن لم تكن ثورة فقد تورَّط ودفع والرجُل ممَّن يأكلون الحرام ويناكف، وأنا أتابع وأتمنَّى لو تطور الأمرُ بينهما إلى شِجار وتماسُك بالأيدي، وعندما اختلى بي زوج أمي

بعدها توقّعتُ زَغدَة أو شَخْطَة أو شيئًا من هذا القبيل، كل ما فعله عَرْكَة بأصابعه لأُذُني وعتاب خفيف، وأنا أتأسَّف وأعتذر وبيني وبين نفسي أدعو عليه هو وأمي بخرابِ بيتهما!

وفي سهرةٍ سهرناها ومعنا أمي، عقِبَ وَصْلَةٍ من الثرثرة والضحك بينه وبينها، وللعلم أنا كلَّما جلستُ معهما كان النكدُ ينتابني؛ علاقة شَرْطية نشأت بين هذا النكد وجلوسي معهما خاصةً عندما يكونان في حالة فرفشة وانبساط، وليس الأمر مَردُّه تأفُّف من ذلك الذي يصيب الأولاد الذكور غيرةً على أمهاتهم مثلما يُقال ويُقرأ في الكتب..

لا. لا. وبالمرة..

فأمي لم تعُد تشغلني؛ خرجَتْ من دنياي وقلبي وضميري، مقت ونكد آخر يموران في صدري، وأظلُّ أقرضُ أظفاري بأسناني دون أن أعلِّق أو أنطق بكلمة، أختلسُ النظر إليهما فقط عندما ينشغلان بعينيهما عني..

ما علينا..

بعد هذه الوصلة الضحوكة النميسة بينه وبينها، عاد زوج أمي بمنكبيه إلى مسند الأريكة التي يجلس عليها وتحسَّس رأسي، قائلًا بأني لو اهتممتُ وفهمتُ أسرار الشغل ودقَّقتُ في الحسابات وفعلتُ كلَّ ما يُرضيه، وهذا الذي يرضيه ـ وحسبما أوضحَ ـ كله في مصلحتي، لو فعلتُ سوف يكتب الورشة والعمارة التي نسكن فيها وهي أيضًا ملكه وفوقهما مخزنًا له بحيّ القابوطي، سوف يكتب كلَّ هذا باسمي «بيع وشراء» على أن تنتقلَ إليَّ بعد حياة عينه.

وأمي الفرحة تقفز من عينيها، ويفلت منها لسانها:

ـ لِك العمر الطويل يا أبو عادل، ربِّنا يحفظك ويخلِّيك لينا يا خويا.

«عادل» هذا اسمي وأبي اسمه «حسَّان» مثلما قلت قبل لحظات وتُوفِّي منذ عدَّة أعوام، رمقتُها بدهشةٍ ثم بغضب، فتبادلا النظر وتجاوز هو هذه اللقطة منحرفًا بسرعة نحو الورشة والمكاسب التي

تأتي منها والتوسعات التي سوف يُجريها عليها، وهبط بكفِ يده على ركبتي قائلًا:

ـ خلاص الحرب خلصت واليهود انزاحوا، والدنيا زهزهت.

وبنبرةٍ وَدُودةٍ:

ـ وبُكرة كل ده هيبقى بتاعك.

ويدفعني بيده مازحًا:

ـ بَس انت تفرد وِشَّك كده وتضحك وتنبسط، فيه حدِّ في الدنيا السعد هيبقى من نصيبه وهو طول النهار مكشَّر وزعلان!

ابتسمتُ على سبيل المجاملة، لم أشأ أن أبدو ثقيلَ الظلِّ وألقَى الإحسان ببرودٍ وسماجة، وحسبني هو فرحان، وشدة الفرحة هي التي ألجمتني عن التعبير عن امتناني بشكلٍ واضح، وأنا لا فرحان ولا شيء، أحدِّق فيه هو وأمي وما بداخلي لا أظنُّ أنه وردَ لهما على بال.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٢

الشروع في القتل هو الجُرْم الذي ارتكبته..

قتل أمي الست وداد المناخلي، وزوجها الحاج زكريا الفار الذي وعدني بالورشة والعمارة.

أمي نَقَلتها عربةُ الإسعاف إلى المستشفى الأميري بحيّ الإفرنج، أجْرَوْا لها عملية جراحية كبيرة، ثلاث ساعات تحت التخدير وهم يحاولون إنقاذها ثم أعادوها إلى البيت، وعلى حسب ما يقوله الناس: خلاص انتهت؛ ليل نهار في الفِراش مذهولةً مما وقع وتارةً تبكي أو تهذي وتتكلم مع نفسها، تقريبًا جُنَّت..

الوغد زوجُها هو الذي أفلتَ، نجَّار ويداهُ كما الحديد؛ كل ما أصابه جُرح قطعي بطول صدغه الأيسر وكلتا يديه اللتين كانتا تذودان عنه وعنها من حالة الهياج التي كنتُ فيها، وتحُولان دون وصول السكِّين التي في يدي إلى الأجزاء المهمة من جسده، فبعد إنهائي على أمي ـ حسبما اعتقدتُ لحظتها ـ كنتُ مصمِّمًا على أذيَّته أذيَةً بالغة، أما الشهود فما أكثرهم؛ كل مَن اقتحم علينا المكان وقتَ الحادث شهد ضدِّي.

وها أنا أقف ببنطال وقميص ولِحْيَة، فلم أحلق ذقني أو حتى شذَّبتُ شعراتها منذ أشهُر، وبقميص أكبر من مقاسي وجورب جديد، الجورب والقميص لا يخصَّانني، امرأة طيبة من الجيران ابتاعت لي الجورب وأتت به إليَّ في السجن قبل أيام ومعه قميص ابنها الذي يكبُرني قليلًا في الجسد، وفوقهما ابتسامة تأثر وكلمة: شِدّ حيلك يا حبيبي، وبجيب بنطالي إيصال بغويشة ذهب عثروا عليها بجيب سُتْرتي عندما ألقوا القبض عليَّ، أخذوها حِرْزًا وسلَّموني الإيصال، هذه الغويشة غالية عليَّ؛ بها رائحة أيام قليلة وسعيدة عاشها أبي..

أقفُ ووجهي خالٍ من التعبير كتمثالٍ من تماثيل الشمع رغم ما بداخلي من ألمٍ وحسرة، ليس على مَن اعتديت عليهما فهما

يستحقان، على نفسي والدنيا التي عاشتها وأوقفتها هذه الوقفة، واللافت أنه كانت تنتابني أحيانًا رغبةٌ في الابتسام ولحظات أودُ فيها لو أنفجر في البكاء وضحكتُ مرةً دون سبب، ومَن يراني يحتار في أمري: فهل أنا غير آبهٍ إلى هذا الحدِّ بالفعلة التي فعلتُها؟ أم عبيط؟ أم فاجر مستهتر؟ وخُذ عندك من هذه الأوصاف حتى منتهاها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وامتلأت القاعة بالجيران..

أغلبهنَّ نسوة، جارات كُنَّ لي بمثابة الخالات والعمَّات..

عيونهنَّ لم تدَعْني، فيها تساؤلات ورغبة في استكمال إجابات لديهنَّ من قبل، فيها أيضًا شفقة، بَدَوْنَ وكأنهنَّ يشفقن عليَّ أكثر بكثيرٍ من زعلهن على ما جرى لأمي، لم يكُنَّ يرتحن لها وبالذات الست التي تقطن بالشقة المقابلة لشقتنا وأتت لي بالجورب والقميص، نظراتها لي كلها دعم وتشجيع وليست مجرد شفقة، وفي المجمل كُنَّ كلهن يصنِّفن أمي على أنها واحدة من المعجبات بأنفسهن ولا يعرفن الحياء، وهذا قول المؤدبات منهن ذوات الألسنة المتحفظة، أما الباقيات فما كُنَّ يقُلْنَه مع بعضهن ليس من النوع الذي يُكتب على الورق.

أصدقاء ومعارف أيضًا بين الجالسين، يتهامسون ومنهم مَن يحاول التماس العذر لي أو على الأقل بينه وبين نفسه غير أنه يفشل، وفي الصفوف الأمامية زوج أمي ـ المجنيُّ عليه ـ ذراعاه ملفوفتان بِشاشٍ وضمادات ويجلس بجوار المحامي الكبير الذي أوكله للدفاع عني، وكلما التقت أعيننا يرمقني بنظرةٍ تخلو من العداء رغم ما فعلتُه فيه هو وزوجته، يعاتب فقط، ووراءه بعدَّة صفوف رجل بملابس بلديَّة وامرأة ريفية.

الرجل اسمه «الشنَّاوي»، عمِّي، أو المفروض أنه بهذه الصفة وأنا وهو في أوراق الحكومة نحمل اسم جَدٍّ واحد «العطفي»، غير أن المفروض شيءٌ والحقيقة شيءٌ آخر، لم يُواسِنِي بكلمة مثلما فعل

البعض قبل بداية الجلسة، ولا حتى نظر ناحيتي، تجاهلني تمامًا، وإن كنت أظنُّ أنه رمقني خِلْسةً وأكثر من مرة دون أن أشعر، جاء وراح دون أن تلتقي أعيننا على نحوٍ مباشر.

والمرأة هي عمَّتِي «نفيسة»، عجوز وتبدو كالتائهة، أول مرَّة في حياتها تطأ باب محكمة أو حتى ترى مدينة طرقاتها مُعبَّدة وباصاتٍ وزحامًا وصخبًا، قلبها لا شكَّ هو مَا أتى بها، وربما هي التي حايلت أخاها وترجَّته في ذلك لتعرف ما سوف يئُول إليه مصيري.

كانت مُشتَّتةً بين فداحة ما فعلتُ وصِلَة الدم التي تتوهَّم أنها تربطنا معًا، عيناها لم تكفُّا عن مخاطبتي وإرسال الرسائل من حيثُ تجلس، قليلة الحيلة وهذا أقصى ما في وُسْعها، لم تستطع القدوم إليَّ بقفص المحكمة؛ حرَّجَ عليها أخوها الجالس بجوارها، مرَّاتٍ وهي تحتويني بنظراتٍ عاطفةٍ أو تجفف دموعًا سقطت من عينيها، وفي الصفوف الخلفية رجل اسمه الحاج زين السلكاوي الصديق الحميم لأبي..

هذا الرجل وإلى وقتٍ قريبٍ كان لغزًا بالنسبة إليَّ، لم أسْلَم من نظراته، كلها غامضة، ولسببٍ كنتُ أجهله وقتها..

الآن عرفت!

جاءني إلى القفص قبل بداية الجلسة، ربَّت على يدي بمحبَّة، طالما ربَّت عليَّ من قبل غير أني لم أشهد منه هذه المحبة سابقًا، واليوم شرع في التعبير عمَّا بداخله إلَّا أنه لم يتمكن؛ سبقه حاجب المحكمة بصيحته الشهيرة: محكمة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٣

ساد الصمتُ مع دُلُوف ثلاثة قُضاة وجلوسهم خلف المنصَّة..

رئيس الدائرة وعُضْوَا اليمين واليسار، ثم شابٌّ في مُقتبَل العمر جلس على مقربةٍ منهم «وكيل النيابة».

عيناي تجريان عليهم خطفًا، لم تتعلَّقا بهم أو برئيس الدائرة خاصةً الذي بيده القول الفصل، الجالسون في القاعة أكثر اهتمامًا بهم منِّي، وبحماسةٍ يعاود الحاجبُ الصياحَ مناديًا عليَّ هذه المرَّة..

لوَّحتُ بيدي قائلًا: نعم أنا عادل..

هذه العبارة هي الوحيدة التي نطقتُ بها طوال الجلسة، فلم أُجِب على أي سؤالٍ وُجِّه إليَّ من المنصة، ومن قبل لم أَقُلْ أية كلمة في تحقيقات النيابة أو وقَّعتُ باسمي على أية ورقة..

التزمتُ الصمت..

وبدأت الجلسة بإشارةٍ من رئيس الدائرة لوكيل النيابة بأن يتفضَّل، ولم يقصِّر الرجل..

تقريبًا أهال التراب على رأسي، وأني ارتكبتُ أفظع جريمة يمكن أن يرتكبها بَشَر، تفوَّقتُ على جدِّنا القديم «قابيل» ذاته، هو قتل أخاهُ وأنا تجاوزته بمحاولة قتل الأقرب والأعزّ لأي كائنٍ في هذه الحياة «أُمِّه»، والجمهور الجالس في القاعة مَشدود متأثر وربما مَنْ كان متعاطفًا معي عدَل عن موقفه ولعنني في سِرِّه، فالوكيل كان منفعلًا بدرجةٍ كبيرة، وأنا برهةً أسمع منه وأغلَب الوقت سارح بخيالي في حياتي السابقة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يكمل الوكيل موجِّهًا حديثَه إلى القُضَاة: ففي يوم كذا شرع المتهم الماثل أمامكم في قتل أُمِّه: وداد عبد الصمد المناخلي وزوجها زكريا عوض الفار بالسكين المُحرَّزة على ذمَّة القضية، وطالَبَ بتطبيق

المادة كذا من قانون العقوبات وتوقيع أقصى عقوبة تقرّرها؛ لأكون عِبْرةً لغيري ممَّن تسوّل لهم أنفسهم انتهاك الحُرُمات وارتكاب هذه الجرائم التي لا يقرُّهاَ شرع ولا قانون ولا فطرة، وانبرى في وَصْلة خطابية مملَّة بالنسبة لي؛ فلا تأثرتُ بها أو مسَّت شعرة واحدة في رأسي.

أتأمله وهو يشير إليَّ بسبَّابته، وأقول له في نفسي: يا سيادة الوكيل، أيها المؤتمَن على «الحق في الحياة»[1]، وتتهمُني بأني مسستُه..

أيها الوكيل، تمهَّل.. تمهَّل.. فأنت تتكلَّم فقط ممَّا أمامك من أوراق ومَحَاضِر وأدلَّة، كل ما قلتَه حدث غير أنه ليس الحقيقة في جوهرها، أنت كمَن يضع ثمرةً في كفِّ يده ويتكلَّم عنها، ومُحصِّلة ما يقول لا تزيد على كونها وَصْفًا للقشرة التي تُغلِّفها، أما الثمرة ذاتها، حامضة، مالحة، لاسعة، حُلْوة، مُرَّة، أنت لا تدري عنها شيئًا..

الحقيقة لا يعرفها سواي ولن أبوح بها لا لك ولا لغيرك، ستظلُّ مكتومةً في صدري، لن أخدش أبدًا دعوة السَّتْر التي طالما ردَّدها أبي وترجَّاها من ربِّه كلَّما توضَّأ وفرد سجَّادته وصلَّى، لا طلب مالًا أو مَغْنمًا من مغانم الدنيا، الستر فقط..

يا صاحبَ البذلة ورباط العُنُق، لا تحسبنَّ أني وحدي الفاعل، أنا مفعولٌ به أيضًا، قُتلتُ قبل أن أقتل!

هل كانت أُمِّي تحبني؟

ما من شَكٍّ، ولم تتثاقل عني يومًا في مطلَب من مطالب الدنيا التي نعرفها بالحواسّ، غير أنها بقرَت فيَّ شيئًا لا يُرى بالعين أو يُسمع بالأُذُن، نفسي التي بداخل الداخل..

شيء لم ولن تعرف مدى أذاه يا حضرة الوكيل إلَّا إذا أصابك..

فلا تقُل لي: قتلتَ أو فعلتَ وقابيل وهابيل وقانون وفِطْرة! دعني في حالي يا رجل..

يا مَنْ أظنُّ أنه لم يعرف من قبل معنى الألم و«كَسْرَة النِّفْس»: لم أشهد لأبي يومًا حُلْوًا مع أمي، لا وجود للحظات سعيدة أو على الأقل هادئة، وإن وُجِدت فمن شُحِّها وغلَبَة السواد انطمست ولم أعُدْ أتذكَّرها..

هو الجُرْذ أو العُصْفُور أو أيُّ كائنٍ ضعيف وهي قطة الشوارع ذات المخلب، وأنا ابن أعوامٍ قليلةٍ ولا ألعب ولا أضحك أو أتدلَّل وأفعل ما يفعله مَنْ هم في سِنِّي، أتسلَّل فقط، ومن بين ثنايا ستارةٍ أو بابٍ مُوارَبٍ قلبي يسمع ويرى ولا يستطيع التحمُّل، وكان هذا أول تَلقٍّ وأول فهمٍ لمعاني كلماتٍ سمعتُ بها فيما بعد..

الخزي، نعم الخزي..

فأَنْ تخجلِ أو ينتابُك كلَّك الحَرَج وأنت في سِنٍّ صغيرةٍ هذا أمرٌ دارج، مؤقَّت أيضًا قلَّما يلبث في الذاكرة؛ ترسُبُ في اختبارات المدرسة مثلًا وعلى الملأ بين أهلك وجيرانك تُنكِّس رأسك، وأفعال وأفعال مشابهة سرعان ما تنحلها الأيام ولا تخلِّف ثقوبًا في الذاكرة، لكن أن تشهد أباك يُهان وليس مرةً؛ مرَّاتٍ ومرَّات، هذا يخلق جرحًا ويُبكي القلب كلَّما ناوشته به الذاكرة.

جرح يصعُب بيانه شفاهةً أو بلفظٍ مكتوب، شأنه شأنَ لسع الكهرباء، يقول مَنِ اكتوى به: أحسستُ بهزَّة أو رعشة، ويصمت، وعندما يُسأل عن وصفٍ دقيقٍ يعجز، يقول: تكهربتُ، ولا يضيف..

انهيار أبي وتقهقره إلى الوراء وأمي تصيح فيه كان اللَّسْع بالنسبة لي، والتمتمة دون كلمةٍ تُسمع وإن سُمعت لا تُفهم كانت تقهرني، تُخزيني، وبخزيٍ يجاوز الخزي الذي يُصيبني عندما كنت أبولُ على نفسي!

أبي يا سيادة الوكيل..

أبي الذي كان سيِّدًا من أسياد الكون في نظري، صعبٌ عليَّ أن أراه ضئيلًا مكسورًا وكالمُذنب في يدِ امرأةٍ ولو كانت أمي، وشيء ثانٍ أهم وأخطر، أدخلتني أنا الآخر في دوامةٍ كان مآلها الحال الذي أنا

فيه الآن..

فمَنْ أنا؟ وإلى مَنْ أنتمي؟

وهذه أول كلَّابة من كلَّابات الدوَّامة التي أمسكت بي..

المدهش أيضًا أن أبي هذا الذي يتلقَّى الإصابات والإهانات كان يملأ الكادر، طولًا وعرضًا، ورجلًا من رجال السُّلطة، شاويش في قسم شرطة العرب ببورسعيد يرتدي بِزَّةً عسكريَّةً بأزرار نُحاسيَّة وفي قدميه حذاء البيادة، إلَّا أنه لم يكن يحمل سلاحًا أو يقف في شارعٍ أو دَرَكٍ ويحرس؛ لا يصلح، اكتشفوا ذلك بسرعة وأوكلوا إليه وظيفةً لا تحتاج إلى الخشونة، أعمال «الفِيش والتشبيه» حيث يأتيه الناسُ زُرَافاتٍ زُرَافاتٍ ليغمس أكفَّهُم في سائلٍ أسود ثقيل، ويطبع هو على أوراق الفيش ويضاهي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٤

بورسعيد في ذلك الوقت (أوائل الستينيَّات) كانت في عزِّ بهائها..

تجارة وتوكيلات وبواخر تجتاز القناة، والليلُ كما النهار ضوء وحركة، وطليان وجريج وأرْمَن وأفندية وأولاد بلد، فضلًا عن نسيم بورسعيد المعبَّأ باليود ورائحة البحر أو بيوت كوبَّانية القناة ذات البواكي والشرفات الخشب، والمبنى العتيق ذي القِباب الذي تُدار منه الملاحة وكل القناة، فطالما تزيَّنت به الكروت السياحية التي نتبادلها في الأعياد وعند الغياب والسفر، لمَن يفهم في الجمال بورسعيد كانت حُلْوة في ذلك الزمن ولا تُلام إذا تغندرت وأخرجت لسانها للبُلْدان المطلَّة على ساحل المتوسط.

أمَّا نحن، أنا وأمي وأبي، كُنَّا في أسوأ حال..

ضَنْك في ضَنْك!

شقة أول عن آخر سبعون مترًا، مَطْرَحان وصالة ومِرْحاض بشارعٍ من الشوارع التعيسة بحَيّ العرب، لم نكن ندفع إيجارها أو حتى نعيش إلَّا بالكاد، فالشاويش أبو ثلاثة شرائط على ذراعه ما الذي كانت تعطيه له الحكومة آخر كل شهر؟ ملاليم!

زكريَّا الفار زوج أمي فيما بعد وصاحب العمارة مثلما قلتُ، كان يسكن معنا بالدور الأول ونحن بالثالث، من عمر أبي ويلتقيان أحيانًا على الدَّرَج أو يجمعهما الطريق وهما ذاهبان إلى صلاة الجمعة، لم تتعدَّ العلاقة بينهما ذلك، السلام عليكم، عليكم السلام، لا أكثر، أما أنا فأول مرَّة أنتبه فيها إليه كانت في اليوم الذي عاد فيه من الحجِّ.

من بين زُمْرةِ صغارٍ تلهو أمام باب العمارة شهدتُه قادمًا بحنطورٍ ترفرف عليه عدَّة رايات باللونين: الأبيض والأخضر، وزَفَّة، عمالٌ ورشته وجيران وأناس من شوارع قريبة جاءت تجامل، أمَّا شارعنا وهو مجرد زُقَاق صغير فقد تكهرب، أشعلته فرقة من فِرَق العزف الشعبية، من تلك التي يسمونها فرقة حسب الله! تتقدَّمها طبلةٌ

تدقّ بحماسة، الفرقة كلها ثلاثة عجائز غير حامل الطبلة، وفي الصحة والهيئة مع السِّنّ الكبيرة ليس هناك مَنْ هو أتعس منهم؛ أناس كُهْنَة، اثنان بجلابيب كَسْتُور أحدهما ضرير والثاني على عينيه نظّارة بعدسات من ذوات السُّمْك الثقيل وبفَمِ كُلّ منهما مزمار، العازف الثالث هو العَفِيُّ فيهم والقائد أيضًا، ببذلة سفاري بها عدَّة ثقوب غير النتشات السريعة، بذلوا والله مجهودًا جبَّارًا وكافأتهنَّ النسوة المُطلَّات من الشبابيك والتَّرَسِينات بعدَّة زغاريد، وهم يتطلَّعون إليهنَّ فَخُورين بموسيقاهم وتزداد حميَّتهم مع كل زغرودة..

وحقائب حقائب يهبط بها فريق الحاجّ زكريا ويدخلون بها من باب العمارة، وكان الخطَّاطون قد سبقوا وزيَّنوا جدران عمارتنا وعمارة بجوارها بعدَّة رسوم؛ طائرات ومراكب ذات شراع ورسم للكعبة الشريفة بجواره عبارة تقول: حجٌّ مبرور وذنب مغفور. ولم يدَع الخطَّاطون المكان إلَّا بعد أن رسموا أيضًا صورةً لرجلٍ ببذلة سفاري وعلى رأسه عمامة (يقصدون طبعًا الحاج زكريًّا)، اجتهدوا والله في رسم هذه الصورة، لكن لو شاهدها أحد المُحكِّمين في الفنون التشكيلية لأعطاها صفرًا على عشرة وجرى وراء الخطَّاطين بخيزرانة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مع أني لا أعرف هذا الحاج ولا أظنُّه يعرفني إذ كنتُ مجرَّد عَيِّلٍ من بين عشرين عيِّلًا يسكنون العمارة، إلا أنه اتجه نحوي مباشرةً فورَ هبوطه من الحنطور، التقطتني عيناهُ من بين ألف واحد وحملني إلى صدره ببشاشة!

كان هذا أول لقاء بيني وبينه إلا إذا كان يتابعني من قبل وأنا لا أشعر، وأحسستُ ببعض الزَّهْو مع الدهشة التي كنتُ فيها؛ رجُل كبير ومهم ـ على الأقل فَي هذه اللحظات ـ كما أنه صاحب العمارة، وأنا مجرَّد هلفوت صغير بصندل إبزيمه مكسور. وبكل فخر حكيتُ لوالدي حسَّان في البيت عمَّا حدث وعن كَبْشَة الحلوى التي

أخرجها من سيَّالة جلبابه ووضعها في كفِّي، أمي لم تعلِّق اكتفت بتربيتةٍ على كتفي، أبي الذي قال:

ـ معلوم يعرفك! دا انت ابن الشاويش حسَّان.

رغم صِغَر سِنِّي وضآلة تفكيري، لم أقتنع بهذه الإجابة..

والتفت هو ناحية أمي:

ـ الحاج زكريا دا باين عليه راجل طيب..

لم تعلِّق أيضًا..

وفي المساء وصلتنا هداياه؛ قطعتا قماش لأمي وأبي ولي قميص وبنطال قصير ولُعبَة على هيئة قطار له قضبان يتحرك عليها ويُصْدِر صوتًا، لُعبة لم أَرَ أجمل منها، لم أكُنْ أعرف هذه اللُّعَب الفاخرة، أسمع بها فقط، كل ما كان عندي شخاليل ونفافيخ وزَمَّارة صفيح، جننت والله بهذا القطار وأنساني ما حولي شهرًا بأكمله.

تتأمله أمي بفرحةٍ هي الأخرى، وأبي كما لو أنه يشاهد أُعْجُوبة:

ـ دا كمان بيصفَّر!

وأمي:

ـ وله مزلقان!

ـ وتلاقيه غالي؟

ـ معلوم غالي..

ويتساءَل:

ـ بس هنردلوا الحاجات دي إزاي؟

ـ شوف انت بقَى..

ـ أشوف إيه! هو أنا أحتكم على ملِّيم..

ويسكتان..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اختفى زكريا الفار عنَّا بعد ذلك..

أول ظهور له على شاشتنا كان بعد عدَّة أسابيع وعلى لسان أمي، أوحت لأبي في حديثٍ جرى بينهما بأنها لا تعرف عنه شيئًا، كنتُ جالسًا معهما وقتها وأنا وأبي صدَّقناها، فرغم أنها تعرف سُكَّان العمارة بالواحد بَدَا عليها وكأنها تحسَبُ أن «الفار» له زوجةٌ وعيالٌ، هذا ما قالته لأبي وعيناها ـ بقصد ـ ليستا في عينيه، كنَّا لحظتها على وشك تناول الغداء وهي محنيَّة تغرف في الأطباق، وأبي يصحِّحُ لها:

ـ لا متجوّز ولا عنده ريحة العيال، أنا بنفسي شايف بطاقته النهارده وأنا بَاعْمِلَ له الفيش.

وهي وكأن ما تقوله مجردَ كلامٍ وليس استفهامًا:

ـ وانتوا لا مؤاخذة بتعملولُه فيش ليه؟ هو عامل عَمْلَة ولَّا حاجة!

ـ لا لا، عملة إيه! ورق الورشة بتاعته ضاع وكان بيعمل ورق جديد ولازم الفيش.

تومئ براحة، وكعادته يَدَعُنا أبي قاصدًا غرفته ليفرد جسدَه حتى صلاة المغرب؛ لم يهنأ بالنوم أيقظه الطَّرْق على الباب؛ يُطِلُّ برأسه من فتحة الباب المُوارَبة:

ـ مين يا وداد؟

ـ دا مرسال من عند الحاج زكريا، باعِت لك زيارة.

وتعلو بصوتها:

ـ شوية قاروص على دنيس على كيسين رُزّ..

ثمَّ تعود للمرسال:

ـ وإيه دا يا واد الملفوف في سلوفان؟

ـ فضلة خيرك كام صُباع بطارخ.

فتذهب بحديثها إلى أبي:

ـ وبطارخ كمان!

يتريَّث أبي لحظات، ثم بنبرةٍ مهاودة:

ـ ودا كلام! علشان ما كان عندي في القسم النهارده يقوم يعمل كده!

وبصوتٍ قابلٍ لكل الاحتمالات:

ـ رجَّعيهم تاني مع المرسال، وقوليلُه يقول للحاج زكريا: أَهِي دي الحاجات اللي تزعَّل، ميصحِّش كده..

ويعاود غلق الباب، وتهمس هي للمرسال:

ـ واد يا عفيفي، طيران بالحاجة دي على شقة أمي اللي في المناخ، وتقولّها إني من النجمة هَاكُون عندها، طبعًا عارف البيت؟

ـ عارفُه عارفُه يامُّ عادل..

غير أنه يتردد:

ـ أنا بس خايف لَعَمّ الحاجَّ يستأخرني.

ـ مَلِكْش دعوة بزكريا (نطقت اسمه هكذا دون تكليف)، ولما أشوفه هَبْقَى أفهِّمه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في اليوم التالي جاءتنا أمي بهذا الطعام مطبوخًا من عند جدَّتي فيما عدا البطارخ؛ استبقتها الجدة لنفسها، وهبطنا نحن عليه كقطط الشوارع المجرمة؛ بالذات أبي، التهم وحده سمكتَيْ دنيس من ذوات الحجم الكبير ومثلهما من نوع القاروص، بصراحة افترى؛

تعامل بشراسة مع هذه الأصناف الجديدة عليه كما لو أنها آخر وجبة له في الحياة الدنيا!

لا أعرف إن كان قد انتبه إلى أن خيرات البحر هذه مصدرُها زكريا الفار، أم لا؟

أكيد انتبه، فصحيح أن أبي رجل طيب وعلى نيَّاته لكنه ليس عبيطًا إلى هذه الدرجة..

دَعْنا ممَّا أكلناه الآن فالجوع كافر ولا مَلامَة على أصحابه، ما أدهشني بحق أن أمي تعرف هذا الفأر جيدًا ونطقت باسمه مجردًا، بل وتعرف اسم صَبِيَّه عفيفي وهو الآخر يعرف بيت أمها وكالمَكُّوك بينه وبين بيتنا، وهي التي في حديثها مع أبي يوم أمس كانت تدَّعي بغير ذلك!

حتى لو اندهشت فالدهشة كانت بنت وقتها، خايلتني وأدبرت دون أن تخلِّف أسئلة كبيرة ولا لاكَ قلبي فيما لا يجب أن يُلاك، أقصى أثر لها أني كنت أتأمل أمي وهي تروح وتجيء أمامي في البيت، ليست تأملات ريبة أو لشيءٍ أعوذ بالله! أين أنا من هذه الأفكار! مجرد فَسْل صغير فهمه فَهْم الكتاكيت، ربما تأملات تساؤل، أو قد تزيد عدَّة بوصات وتصير تأملات طفل أمه تلاوع فهبطت قليلًا في عينيه، ولم تكفَّ عيناي عن ملاحقتها وهي تمارس حياتها المعتادة؛ تصفِّف شَعْرها، تهندس حاجبيها، تنثني وتلتقط شيئًا سقط منها، أو وهي تتمايل بجسدها مع رقصةٍ لنجوى فؤاد أو سامية جمال تُعرَض على شاشة التلفاز، وأُوَلِّي بعينيَّ هاربًا إذا لاحظتُ أنها تشعر بي..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٥

يخرج أبي علينا من جديدٍ بعد تعسيلة العصر..

شَعْره منكوش وبسروالٍ تحتيّ طويل وصديري من أعلى، يلقي علينا السلام ويتجه إلى الحوض قاصدًا الوضوء، الحوض في مَمَرٍّ صغير بين الصالة والحمَّام وكله كراكيب، ومظلم اللمبة التي بأعلاه محترقة ولم تكُنْ تُستبدَل إلا بعد إلحاح.

مع دفقات ماء الصنبور يأتينا دعاؤه لنا وللمؤمنين جميعًا، كنت أسمعه أيضًا وهو يدعو لامرأةٍ يبدأ اسمها بحرف «الفاء»، هذا الحرف هو ما التقطته أُذُناي إذ كان ينطق الاسم بصوتٍ مدغوم، عرفت فيما بعد أنه كان يقصد به الست فاطمة زوجة أخيه الشناوي!

يظلُّ يدعو مع كلِّ حركةٍ من حركات الوضوء، وقد تنتابُه فجأةً حالةٌ من حالات الدَّرْوَشة يعلو صوته فيها أو قد يخفتُ تارةً إلى حدِّ الطنين أو الهمس: الله الله.. حَيّ حَيّ.. يا ستَّار يا ستَّار..

كل هذا وهو أمام الصنبور، وفي ختام دعائه أو دروشته إذ كانا يتداخلان معًا، كان يركز بالذات على «السَّتْر» دنيا وآخِرَة، كلمة «يا ستَّار» هذه على لسانه طول الوقت، بمقتضى أو دون مقتضى، حتى إني تعلَّقتُ بها وأصبحتُ جنديًّا من جنودها فيما أتى علينا بعد ذلك من أحداث.

وأمي الجالسة بجواري في الصالة مشغولة بنفسها، تتحسَّس خدشًا بفتحة صدرها، أو بمراهم وكريمات في أحقاقٍ وعُلَب تدلِّك ذراعيها، وبين الحين والحين ترفع عينيها ناظرةً إليه، فطقوسه هذه وبالذات منها الدَّرْوشَة كانت تستفزُّها، وما من تعبيرٍ يبدو عليها سوى الحنق والغيظ منه، كنتُ ساعتها أبتسم مجاراةً لها ومن بعد زيارة السمك واللَّوَع الذي لاوعته يومها لم أعُد أتماهى بالابتسام أو حتى أعبَسُ في وجهها، أخلو من التعبير..

بعد أن يدَعَ أبي سجَّادة الصلاة يأتينا بجلبابٍ بسُفْرة ومن عند

المَنْحَر تلوح أول عروة من عراوي الصديري، وطاقية مستطيلة من نفس لون الجلباب وشبشب كاوتش ممَّا يدخلون به الحمَّام، الزّيّ الذي يرتديه سواء أكان معنا في البيت أم يستقبل ضيوفًا أو حتى خرج إلى الشارع، وعينا أمي على الصديري بالذات الذي يطلُّ من فتحة الجلباب، ترمقه باستياءٍ فلم تكن تعجبها الصَّدَارِي ولا مَن يلبسونها..

صحيح أن أبي كان بسيطًا ولا يفهم في مسائل اللبس والأناقة، إلَّا أن مقتضيات الإنصاف تقول بأنه مع مرور الأيام تطوَّر وبدأ يتلاعب بأطقم الثياب التي يرتديها؛ يضع في قدميه مثلًا حذاء البيادة الميري بدلًا من «الزَّنُّوبة»، ويرتديه مرةً بجورب ومرة بغير جورب، وأحيانًا يطوِق عنقه بكوفيَّة أو يعقدها حول رأسه رغم حرارة الجو، وعلى الدوام خيزرانة صغيرة في يده يتباهى بها، رُغْم أننا في بورسعيد وليس في الفلاحين!

وأمي مهما تطور وتأنَّق لا تكفُّ عن ملاحقته:

ـ ما بلاش من طقم البوَّابين دا اللي انت لابسه، أنا اتفضحت وكل مابَاشُوفك بيه في الشارع بتبقَى رقبتي قَدّ السمسمة!

ـ بوابين!

ـ آه بوابين، اتلفت كده لروحك والبس بدلة، شرز، بنطلون چينز.

ـ بنطلون چينز، يا صلاة النبي!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يربض لنا بعدها في الشقة إلى صباح اليوم التالي..

ليس من النوع الذي يَعُطُّ في الشوارع أو يجلس في المقاهي، اللَّهُمَّ إلا قهوة بلديَّاته وحبيبه الحاج زين السلكاوي، وساعة الصبح فقط قبل أن يتوجه إلى محلّ عمله؛ ليحتسيا معًا فنجانًا من القهوة ومعها الشيشة إذا سمح الوَقت.

ولم يكُنْ يشاهد التلفزيون إلَّا إذا كان يعرض فيلمًا من إبداعات

«نجيب الريحاني» أو «إسماعيل يس»، وساعتها يظل يضحك يضحك حتى تدمع عيناهُ أو ينكفئ على وجهه، أما هي فلا يعجبها سوى الرقص، ترى وتقلِّد..

يظلُّ جالسًا على الكنبة السليمة التي في الصالة حتى ميعاد نومه، فالكنبة الأخرى لوحها مكسور فضلًا عن إن إحدى قوائمها لا تصل إلى الأرض منذ أن دخلت البيت، همسةٌ تفصل بينها وبين بلاط الشقة، باختصار لا تصلح، وعدَّة مقاعد شاخت وكَحْكَحتْ موزَّعة في الأركان لمن يريد أن يستريح، مقاعد بها العِبَر، شبيهة بأخواتها التي تملأ فِرَاشات العزاء البسيطة التي يجلس على الواحد منها كل ليلةٍ خمسون نفرًا على الأقل، حتى أفنوها وأخرجوها من دينها!

طلَبتْ أمي منه مرةً إبلاغ زكريا الفار ليرسل أحد صبيانه لإصلاح الكنبة المكسورة، وكان هو مشغولًا بالراديو الترانزستور النائم في حِجْره، خفض من صوته متسائلًا:

ـ بتقولي مين؟

ويبدو أنها أوَّلت سؤاله على ما في رأسها وبان القلق على وجهها، والحكاية وما فيها أنه لم يسمع جيدًا فطرح هذا التساؤل، هذا كلُّ ما في الأمر، ونسي أبي بعدها ما طلبته منه ولم تكرر هي الطلب مرة أخرى.

تحتاط من ذكر اسم هذا «الفار» أمامه، فرُغْم أنها جبَّارة على أبي فإن ظنَّها كان يخوّفها من التكرار ومن أي لفظ لطيف يخرج من بين شفتيها في حقِّ هذا الرجل؛ فهذه الأشياء تخلق حساسيات والحساسيات وخَراب البيوت كما الإخوة وينجذبان لبعضهما مثلما ينجذب المعدن إلى حَجَر المغناطيس، وإن كان خراب البيوت ليس الهدف الذي تتوقَّاه على المدى الطويل، تخشى فقط أن يأتيَ قبل الميعاد الذي ترتب له.

وأبي لا يزال فوق الكنبة ومؤشر الراديو الآن على إذاعة القرآن الكريم وترتيل للشيخ محمد صدِّيق المنشاوي، وشاي في سيجارة

إلى أن غفا وسقط منه رأسه؛ لكزته أمي كي يصحو ويتناول العَشاء غير أنه اعتذر:

ـ لا. لا، هَنَام خفيف.

ـ برضه أحسن!

تعاملاتُها معه خشنة، ليس بينهما ـ خصوصًا هي ـ وُدٌّ ظاهرٌ أو حتى مضمَر، كما لو أنها تستكثر نفسها عليه..

لا أعرف كيف التقيا ولا كيف تزوَّجا، هو عالَم وهي عالَم آخر، بورسعيدية أبًا عن جَدٍّ وليست مثله من الفلاحين، كل يوم في الشارع والدلال بادٍ في مشيتها وتسبيلة عينيها، وفي الفترة المسائية تزداد صهللتُها، تهيج، وبثوبها البيتي أبو حمَّالات مع أغاني شادية وصباح وعبد الحليم، أو إلى البلكونة أو الترسينة حسبما نسميها، تتابع حركة الشارع وأبي يلفت نظرها كي تضع شالًا على أكتافها العارية..

لا تردُّ عليه..

يلفتُ نظرَها من جديد، تُشيح له بيدها بأن يدَعَها في حالها، ويخاف أن يكرر كي لا تبادره بما هو أسوأ؛ يصمت، وألحظُ تعبيرًا وإن كان خفيفًا يلوح على صفحة وجهه، كأنه مكسوف، ويُشيح بظهر يده إشاحةً لا معنى لها سوى أنه قال وهي التي لا تسمع الكلام، ويرمقني وأرمقه، يبتسم بعدها مداريًا خيبته..

أحيانًا كانت تنادي عليَّ لأجلسَ معها في البلكونة وتُلِحُّ، لم أكُنْ أستجيب، ليس كسلًا أو لأني أكون مشغولًا في هذا الوقت، عِنْدًا، كأنَّ آليةً بداخلي تصطفُّ بجانب أبي وتردُّ لها ما تفعله معه.. لم أفهم الأمر وقتها على هذا النحو، أدركتُه بعد أن كبرت، وبمرور الأيام كان أول سؤال يجول في خاطري: لماذا تستهينُ به؟ ولماذا هو سهلٌ هيِّنٌ في يدها هكذا؟

هذا التساؤل لا شكَّ خلَّف أثرًا في نفسي؛ زادني قُرْبًا منه، فبالفطرة الطرف الأضعف أكثر جذبًا من الطرف الأشَدِّ، وأصبح جزءٌ

مني يقف في وجه أمي، لا أقول يعاديها، يتحفَّز فقط ويُخفي تحت أضراسه، مكمَن الخطر في هذا الجزء أنه صعب الاستئصال، لا يكمُن إلَّا في العمق وخلاياه تتكاثر بمُضيِّ السنين..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٦

قليلًا ما كنتُ أخرج من البيت..

لا أميل إلى اللَّعِب في الشارع، وعندما ألحقوني بالمدرسة أعود منها كلَّ يومٍ ولا أغادر، وربما لا أبارح غرفتي ذاتها، ولا تغُرَّنَّكم كلمة «غرفتي» فهي مجرد سرير سِفَري وسَحَّارة والبلاط بلاط سطوح.

أحيانًا تصطحبني أمي معها وهي تتسوَّق، وأحيانًا هذه ليست سوى مرَّاتٍ قليلة! امتنعتُ بعدها عن مرافقتها في أي مَطْرَح..

يتحرَّشون بها، لا يستحون حتى وهي تجرُّ عيّلًا في يدها..

وأشتعلُ أنا، أندفعُ في سَبٍّ وشَتْمٍ بألفاظٍ بذيئة، ولا غرابة فأنا أسمع هذه الألفاظ دائمًا في الشارع وأحيانًا على لسان أمي عندما تتعارك مع جاراتها أو تُغلِظ لأبي، وأركل أيضًا بأقدامي مُدافعًا عنها، ركل في الهواء طبعًا والغضب غضب صغار، هذا كُلُّ ما كان في استطاعتي، سبع أو ثماني سنوات وهم حيوانات، وكانت ردود أفعال الناس تلاحقني تارةً بدهشةٍ وتارةً بإعجابٍ، المتحرِّشون أنفسهم كان منهم مَن يكفُّ عنها ويبتعد جرَّاء حماستي..

لا تغيب عني وجوه هؤلاء المتحرّشين، أستحضرها كلَّما خلوت بنفسي وفي أحلام اليقظة أظلُّ ألكَمُهم بقبضة يدي وأركل وأدهس فيهم، وبالذات واحد منهم عيناه كانتا حَوْلاوَيْن وبقميصه الأزرق نتشة عند الكتف ورائحته صعبة، خليط بين تبغ السجائر وعَرَق قميء، عاشت معي هذه الرائحة زمنًا، يبدو أن الذاكرة تصرَّفت من تلقاء نفسها وخزَّنتها في دواليبها، وكلَّما مرَّت بأنفي بعد ذلك أو حتى ما يشبهها لاح لي هذا النذل هو وما جرى منه، ونَمَتْ فيَّ غريزة الانتقام وما لم أستطع فعله في الواقع كنتُ أفعله في أحلام اليقظة!

هذا الواحد الذي أتكلَّم عنه، كان بائعًا يقف في كُشْك للمُرطِّبات والسجائر بشارع «أوچيني» قُبالةَ مبنى الإسعاف والجوُّ يومها

شديد الحرارة، تلاحظ أمي عينيَّ اللتين راحتا إلى ثلاجة المرطبات الملاصقة للكُشْك وتنقُرُ خفيفًا بأصابعها على كتفي:

ـ عطشان؟

البسمة التي لاحَتْ على وجهي أجابَتْها، وأُضيف:

ـ وكمان باكو بسكويت..

ـ من عِنيَّه..

وتربّتُ عليَّ عابرة بي نهر الشارع صوبَ الكُشْك، نادرًا ما كنت أطلب من أبي أشياءَ كهذه، أكتم رغباتي عندما أكون معه فكل ما في جيوبه قروش السجائر التي يدخّنُها، أعرف ذلك وأستحي؛ أمَّا هي فكيسُها عَمْران على الدوام بأرباع وأنصاف جنيهات وأحيانًا بجنيهات لا أعرف من أين تأتي بها؛ حتى إنَّ أبي ذاته ساوَرَهُ الشكُّ وهو الغلبان الطيب الذي لا يدري بما يجري في بيته، فتَّش كيسها مرَّةً من ورائها ووجد به أحد عشر جنيهًا، ولما سألها قالت له إنها مساعدة من العجوز أُمِّها، وعندما بَدَا عليه عدم الاقتناع زَامَتْ في وجهه فسكت.

ما علينا..

تَبسَّم في وجهينا هذا الأحوَل وجهَّز لنا ما طلبناه، ومدَّت هي يدها إلى فتحة صدرها لاستخراج كيس النقود، والكيس يعاند وما تعرَّى من ثديها يزداد، وإذا بهذا النذل يتجرَّأ ويمدُّ أصابعه وكأنه يساعد، رجل سافل غير أنه لم يفعل هذا من فراغ؛ وتعفرتت أمي، صرخت في وجهه وشتمته ذاكرةً اسمَه فقد كانت تعرف الاسم، ومالت تخلع له ما في قدميها لاعنةً أُمَّهُ وأباهُ وتجمَّع الناس، أنالوه ما يستحقُّ وصمَّم بعضهم على طلب «بوليس النجدة» أو جرّه إلى قسم العرب الواقع مَبناهُ على بُعد أمتار، إلَّا أنها تسامحت خوفًا من الشوشرة خاصةً بعد أن توسَّل إليها:

ـ بقَى كده يا وداد، مَكَنْش العَشَم! *(فالنذل هو الآخَر كان يعرف اسمها)*.

حرَّجت عليَّ يومها بألّا أنطق لأبي بكلمةٍ ممَّا حدث؛ صَمتٌ، وتدنَّتْ هي في عيني درجةً أخرى بعد تَدَنِّيها السابق..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

التحرُّشات التي تتعرض لها تزداد عند وُلُوجِها سوق السمك..

صفير خفيف وكلام مكشوف من حناكيش الباعة وأحيانًا ممَّن يبتاعون أو يمشون في الشارع؛ والسبب ثيابها غير المحتشمة وسيرتها التي تسبقها، ناهيك عن أنَّ فيها شيئًا يُشعل الغرائز المستترة، هل نظرات عينيها؟ الطريقة التي تلوك بها اللُّبَانَة في فمها؟ ضحكاتها التي ما بين شفير الإثارة وشفير المُجُون؟

هذه الفلتات كانت تدفعُ الناسَ إلى التجرُّؤ عليها، وهي لا ضيق ولا غضب غيرة على نفسها، تتورَّد وجنتاها ويزداد دلالُها كما لو أن هذا الغَزَل الفاجر يُعجبها! وإذا تطاول عليها أحدٌ بما هو أكثر تنشقٌّ الأرض عمَّن يذود عنها؛ الحاج زكريا الفار نفسه هو وصبيانه، فورشة عَمّ الحاج قريبة، خطوات من السوق والدنيا مفتوحة على بعضها، وأيَّة لَمَّة أو عُلُوِّ صوت يصل فورًا إلى الآذان.

يذودُ عنها بشراسةٍ كأنها من أهل بيته، أخت أو زوجة، وهي ظاهرُها التأفُّف ممَّن يتحرَّشون وبداخلها نشوةٌ من أن الرجال يتشاجرون عليها! وقد فوجئَتْ مرةً أثناء هوجة من هوجات المعاكسة والشِّجار هذه بهذا الفار يخطفني خطفًا من فوق الأرض كي لا أضيع في الزحام، حملني إلى صدره ومعنا إلى البيت هو وبعض صِبْيته بعد أن لقَّنوا مَنْ تحرَّش درسًا لا يُنسى.

هذه خامس أو سادس مرَّة أراه فيها بعد أن رجع منَ الحجاز بمسبحة وجلباب أبيض ورائحته بَخُور في بخور، والآن هبط من عيني مثلما هبطت أمي؛ اهتمامه الزائد بها أثار غَيْرتي، ومع ذلك لطفه معي كان يُحيِّرني؛ فما من مرةٍ من هذه المرَّات الخمس أو الست إلا وأغدق عليَّ، يكبش ويملأ كفِّي بالحلوى أو يحتضنني وينهال عليَّ تقبيلًا..

تلقَّيت قبلاته أول الأمر بحياد، لا أنا مُتقبِّل ولا أنا رافض ثم ضجرتُ منها، كنتُ أخلِّص نفسي منه كلَّما طوَّقني بذراعيه، وأول ما يغيب عني بعينيه أُزيل آثار هذه القبلات عن جبيني ووجنتي؛ خاصةً بعد أن هبط بأطراف شاربه حتى التحمت بلحية صغيرة ربَّاها أسفل ذقنه، ففي أحد مسلسلات الكارتون التي أشاهدها على شاشة الأبيض والأسود التي في بيتنا، الشرِّير دائمًا بهذا الشارب وهذه اللِّحْيَة، وكأنهما إضافة جديدة للنفور منه ومن كُلِّ مَنْ لهم هذه الهيئة! وقد حاول مرَّةً إعطائي ورقةً بخمسين قرشًا، وهذه ثروة بالنسبة لي، غيرَ أني جريتُ من أمامه أول ما مدَّ يده بها، وعندما قلتُ لأبي لامني:

ـ ولِيه! دا راجل طيب وحنيِّن، تكسفه ليه!

أبي كان ساذَجًا إلى حدِّ البَلَه، أنا المفعوص أشطر منه وقلبي وعقلي أسرع منه في الالتقاط..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في هذا اليوم الذي تحرَّشوا فيه بأمي، كان الفار يرتدي بذلة سفاري بنصف كُمٍّ وطاقية بيضاء، وشَعْر رأسه غاية في السواد واللمعان بسبب الأصباغ والڤازلين والماء أبو أكسوچين الذي يضعه عليه، ورائحة عطر تفوح منه، ليس عطرًا من عطور الباشوات أو الماركات، عطر رخيص؛ غير خاتم بفصٍّ أزرق بإصبعه الخِنصَر وثلاثة أقلام جاف بجيب السُّتْرة العلوي؛ باختصار كان «معجبانيًّا» وطبعًا في حدود مستواه..

ما زلتُ محمولًا إلى صدره، وأسمعه يهمس لأمي ونحن في طريقنا إلى البيت:

ـ ابقي استري نفسك يامُّ عادل، مش كده!

وبلكزةٍ من مرفقه في جنبها:

ـ وبعدين يا وداد!

زجْرُه هذا هبط عليها كما العسل، رَنَتْ إليه بطرف عينها زاممةً الزرار العلويَّ ومُخْفيةً ما تعرَّى منها، ودون أن يستأذن أو حتى يشاورها مال صوبَ امرأةٍ تبيع في الشارع واشترى لها شالًا، بطرف العين نفسه وهي هي الرَّمْقَة تمدُّ يدها للشال ساترةً أكتافها، ونكمل إلى البيت وأنا لا أزال فوق صدره وقبلات جديدة، كان متأثرًا لانفعالي وغضبي مما تلقاه أمي، وتحسَّس رأسي قائلًا:

ـ راجل وابن راجل..

تذهب عيناي إلى طيف أبي؛ حسبت أنه يقصده..

قلَّلتْ أمي خروجها بعد ذلك، ليس امتثالًا لنصائح الرجل الغلبان المذكور في بطاقته العائليَّة أنها زوجته، جاءتها التعليمات من الفار، أنا الآخر وكما سبق أن قلت لم أعُد أخرج معها في المرَّات القليلة التي تخرجها، لكن إن أخذني أبي في يده كنتُ أرحِّب، إلى أن اتضح أن الخروج معه كان «مقلبًا» هو الآخَر..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا يصطحبني إلا إلى مَقرِّ عمله، قسم العرب هو الفسحة التي يراها مناسبة!

شيءٌ في حدود إمكاناته ويُسعدني في الوقت ذاته حسبما يعتقد، أرى الناس وأمرح في طرقات القسم وأعود وجيوبي عامرة بالهدايا، نوجا، كيس ملبّس، زجاجة مياه غازيَّة، أوراق مالية من ذوات الفئات الصغيرة، وكل هذا من المأمور والضبَّاط وممَّن يتعاملون مع أبي في القسم، النسوة منهم بالذات فهُنَّ الأكثر طيبة.

نزهة مجَّانية لا تَمسُّ جيب أبي بأذى، أما فيما قبل كُنَّا نذهب إلى البحر وأقصاها سميطة بعشرين ملِّيمًا، أو إلى إحدى دُور السينما ذات التذاكر الرخيصة وكيس لبِّ أو فِشار وهذا آخر ما في وُسْعه..

سئمتُ من هذه وتلك؛ كانا مشاوير وليس فُسَحًا، السينما رديئة وزحام ناهيك عن قِلَّة أدب الجالسين معنا في التِّرسُو، يتسلَّون باللّبِّ والفول السوداني ويقذفون بالقشر على أعناقنا من الخلف،

وأريد الذَّهابَ إلى الحمَّام ولا أعرف أين أتجه، وعندما أفرغ ويعود بي أبي نجدُ غيرنا شغل المقعدين اللذين كنا نجلس عليهما..

وإذا اتجهت نِيَّتُه للذهاب إلى البحر ما الذي أفعله هناك؟ أهيم وأسرح في ماذا!

هو الذي كان يهيم أو ربما يضيع في موج البحر الذي يترامى تحت أقدامنا بزَبَدٍ أبيض يبقى على الرمل ولا يعود مع الماء المنحسر، زَبَدٌ لا معنى له قياسًا على باقي مخلوقات الله وأبي هو الآخر نفس الشيء! وإذا استرجعتُ طيفه في خيالي الآن أشعر بأنه لم يكن مرتاحًا، صمتُه يطول لأكثر من ربع الساعة والابتسامة بالكاد وكأنَّ ليس معه ولدٌ صغيرٌ في حاجةٍ لمَن يُداعبه ويُشاغله، وتجهُّم يعلو وجهَهُ، ليس تجهُّمَ إصرارٍ وتعافٍ، تجهم هوانٍ وقِلَّة حيلة؛ كان مسكينًا بجدارة، صحة لا بأسَ بها وهُزال من الداخل!

يتذكَّر أني بجواره وعلى وشك التذمُّر فيحتويني بذراعيه وينهالُ عليَّ تدليلًا، يحدث منه هذا دون مقدمات وبأكثر ممَّا تحتاجه عواطفي في هذه اللحظات حتى أكادُ أشعرُ بالضيق وأدفعه خفيفًا ليدَعَنِي، أعذره الآن فيما كان يفعل، يُعاني الضآلةَ وأنا النبتة التي تُشعره بأبوَّته وأنه شيءٌ كبير، أنا الآخَر كنت مشدودًا إليه بأكثر من أيِّ ولدٍ آخر تجاه أبيه، وأشعر بالقلق إذا تأخَّر ولو ساعةً في عودته من محلِّ عمله رغم أن هذا الأمر لا يعني مَنْ هم في سِنِّي، وكَمْ من مرةٍ مات مني فيها أثناء أحلامي، ملعونةٌ هذه الأحلام! الحُلْم الواحد منها كان يُدخلني في دوَّامةٍ لمدة أسبوع على الأقل..

لا أعرف مَنْ منَّا كان أكثر حُبًّا للآخَر، كلانا في حالة إفراط، هو ليس له سواي، وأنا وإن كان هذا لافتًا وعلى خلاف ما تجري به الأمور بالنسبة لمن هم في مثل سِنِّي لم أكُنْ متعلقًا به فقط لكونه أبي، كنتُ أعطف وأشفق عليه وبلا قصد أو تخطيط أكاد أمارس معه طقوس الأبُوَّة، كالبنُّوتَة الصغيرة التي تهدهدُ دُميةً في حِجْرها وتحسَبُ أنها أُمُّها!

العلاقة بيننا لا شكَّ كانت ملتبسة، فعلى قدْرِ ما كان مريضًا بي

كنتُ أنا أيضًا مريضًا به، كُنَّا أشبه باثنين يُمرِّضان بعضهما بعضًا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٧

وإلى قسم العَرَب لأمرح وأتفسَّح مثلما يتصوَّر أبي!

لكن قبل ذلك لا بُدَّ من المرور أولًا على قهوة السَّلَكاوي، فهذا المرور بالنسبة له أشبه بخاتم البوستة أو طابَع البريد الذي من دونه لا يستقيم يومه.

قهوة بلديَّة بمنتصف شارع «التلاتيني»، من تلك التي يُقال عنها:

ـ هيَّه صحيح على قَدَّها بس محترمة وينقعد فيها..

نشيطة أيضًا؛ العمال من أول الصباح كنسوها ونظَّفوها ورتَّبوا الطاولات والمقاعد في أماكنها، وعند «النَّصْبَة» غلَّاية الماء، البخارُ يتصاعدُ منها استعدادًا لقدوم الزبائن المُبكِّرين، والحاج زين السلكاوي ببذلة سَفَاري وصندل ماركة «بَاتَا» وساعةٍ أستيكها المعدني يترجرج على معصمه كلَّما أشاح بذراعه، وعلى الدوام بجوف المقهى خلف طاولته ذات الأدراج وأمامه علبة من الصفيح ملآنة بالماركات.

نشأ هو وأبي ببلدةٍ بزمام مركز فارَسْكُور، ساقتهما الأقدار بعد ذلك إلى بورسعيد، أبي بعد قصةِ حُبٍّ جميلة باءت بالفشل، والحاج السلكاوي فأسُه وعافيتُه هما كل رأس ماله، الاثنان تقريبًا كانا بائسَيْن.

أبي الجاهل بقدراته ظنَّ أنه سوف يُفلح في التجارة، بدأ أَرْزُقيًّا، بضائع تافهة وليس لها لزوم وضعها على كتفه ودار بها في شارع التجاري والحميدي وكسرى والنواصي والأزقَّة، أشهُر وخسر كل رأس ماله؛ الناس كانت تضحك عليه وتبتاعُ منه أشياءَه بأقلَّ من سعرها، العيال العفاريت أرباب الشوارع كانوا يغافلونه أيضًا ويخطفون منه، أخيرًا تطوَّع في البوليس وأصبح له راتبٌ يقبضه آخر كل شهر.

أمَّا السلكاوي كان ناصحًا؛ بدأ صَبيًّا في أحد المقاهي والقرش فوق

القرش والهدوم لا غسيل ولا مكوى والأكل فول وفلافل والخبز «عيش رَجُوع»، وإذا أراد أن يتغندر ويسرّي عن جهازه الهضمي أقصاها ساندويتش من عرباتٍ خارجةٍ عن القانون وتُدفع باليد، كُلٌّ بضاعتها شَغَت ودُهْن وعَكٌّ، أشياء يسمونها «السمين»، وفاز آكل السمين، استأجر المكان الذي هو فيه الآن وحوَّله إلى مقهى وضع اسمه بأعلاه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يلقانا السلكاوي مُهلِّلًا..

في المُجمَل كان وَدُودًا، والأجمل أنه يحب الخير لأبي، فإلى الآنَ لم ألحظ سوى ذلك، أما معي فثمَّة شيء آخَر، شيء كالعكارة التي تَعلَق بالكوب النظيف ولا تُرَى إلَّا بعد تدقيق.

وهذا الذي أتصوَّره ليس نتاج تصرُّفات قاطعة بدرت منه، مجرد تأويل أو لنَقُل إحساسًا، فالرجل رغم أنه يُوليني اهتمامه ويداعبني مداعباتٍ لطيفة فإنه في غمار هذا الاهتمام كان يتحسَّسني بعينيه! حَدَبُه عليَّ ظاهر لكن مع هذا الحَدَب نظرات تستفهم، كما لو أنَّ أمرًا يشغله وأنا الإجابة!

أحاديثُه هو وأبي لا تدخل في دوائر اهتمامي، دخلتُ هذا اليوم واقتربتُ منهما على صوت عَمّ السلكاوي وهو يوسوسُ لأبي بمسكنٍ جديد، وأبي دهشةٌ تطفو على وجهه:

ـ سكن إيه وشقة إيه يا بو سعيد!

ـ دي قُرِيّبة من هنا، إنت يا دوب تخرَّم وتدخل شارع الحميدي وعلى طُول...

ويستمرُّ في الإقناع:

ـ وتَلَتْ مَطارِح مقفولين غير الصالة، واللي بتدفعه هنا هو اللي هتدفعه هناكَ، ماتتفاتش دي يا بو عادل، خسارة والله!

وأبي كمَن استراب في الإلحاح:

ـ وإيه اللي جاب الموضوع ده في دماغك؟

ـ لقيتها قُدَّامي، قلت فرصة حَكِمْ شقتك ضيقة والبيت كمان أجدَد من البيت اللي انت قاعد فيه.

بوادر قبول تلوح على وجه أبي، غير أنه لم يَقُل سوى:

ـ والله..

ثم سكتَ والسلكاوي يتعجَّله:

ـ والله إيه! يعني أتفق مع الراجل؟

ـ لا. لا. اصبُر عليَّه كام يوم وأنا أجيب لك الرد، هشاوِر أمّ عادل.

ـ أُمّ عادل!

قيلت من السلكاوي بإحباط، وشرعا في أحاديث أخرى سأل أبي بعدها:

ـ وعامِل إيه مع الجدَع ده اللي اسمه الفار؟

ـ مالُه؟

ـ آهو..

ـ آهو إيه؟

فاندفع السلكاوي:

ـ سُمعتُه بطَّالة..

يلوح الاستغراب على وجه أبي وهو يؤكد له:

ـ آه سمعته بطَّالة، فلاتي ابن كلب..

ـ لا لا يا شيخ كُنَّا درينا، وهو انت سمعت حاجة؟

يعبث السلكاوي في الزرار العلوي لسُتْرَتهِ مبتعدًا بعينيه عن وجه أبي:

ـ يعني، آهي الناس بتتكلم..

وأبي وهو يتهيأ للانصراف:

ـ كل واحد متعلَّق من عرقوبه، واحنا ف حالنا وقافلين علينا بابنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد أن قضيتُ هذا اليوم في القسم مع أبي، ورجعنا وأبلغنا أمي باقتراح السلكاوي لم تتحمَّل، قاطَعَت ما يُقال وبصوتٍ خافت غير أنه خارجٌ من الأعماق:

ـ آه يا ابْن الكلب يا سلكاوي! آه يا حِشَرِي!

ثم أمسكت في رقبة أبي:

ـ وهو مالُه! أيوه مالُه بينا الراجل الدُّون ده!

يراجعها أبي:

ـ حِشَرِي إيه ودُون إيه! يا شيخة حرام عليكي دا أطيب واحد في الشارع.

وهي عاجزة عن تمالُك نفسها:

ـ واسمع لمَّا أقولَّك، آه اسمع وفتَّح ودانك، والله والله لو الراجل ده طَبّ عندنا هنا تاني لأبهدلُه.

ـ تبهدليه! وهو إيه اللي حصل..

ـ أبهدله وأبهدله، حاشِر نفسه ليه بناتنا، عشر سنين في البيت وعرفنا الناس وهُمَّا كمان عرفونا، وبسلامته جاي دلوقتي يقولِّنا يلَّا يلَّا عزِّلوا!

لم يعلِّق أبي أو انتبه إلى رَدَّة فعلها المبالَغ فيها، نكَّس رأسه وسَكَتْ..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٨

لأبي شعبيَّة بين زملائه..

كنتُ ألمسُها من أول ما أخطو من بوابة القسم، ليس من فرع الضُّبَّاط؛ إذ كانوا آلهة صغيرة بالنسبة إليه، ولا يرجع هذا إلى غلظةٍ يمارسونها عليه بقدر ما كان هذا طبع أبي؛ فلم يكُنْ يتعامل ويحترم وفق الأصول العسكرية المتعارَف عليها، يتوجَّسُ ويخاف بل يكاد الرعب يطلُّ من عينيه إلى أن أصبح كما «الشُّخْشِيخَة» في اليد.

ولم يكن يخشى الظاهر فقط، يتحسَّب أيضًا من المجهول القادم في الغدِ أو من «المستخبِّي» حسب تعبيرنا نحن البسطاء، فالغامض الذي في الغيب عنده شرٌّ على الدوام، ليست فيه رائحة الخير بالمرة، لا أنسى أبدًا إشاحاته البائسة كلَّما تحدَّث في هذا الموضوع وقوله عقب كل حديث:

ـ اسكت. اسكت. ربنا يلطُف!

وكان حَدْسُه صحيحًا؛ فقد أطاح بنا هذا «المستخبِّي» أنا وهو معًا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا يغيب عني أيضًا الخزي الذي اجتاحني أول مرَّة أذهب فيها معه إلى القسم..

ارتجف أمام ضابط من دور أولاده جرَّاء غلطة وقعت، لم ينتبه هذا الضابط إلى أن مَن يقف على بُعد ثلاث خطوات هو ابنه، استمرَّ في التوبيخ وبما يقترب من إساءة الأدب، وأنا صدري يتململ..

خلايا الذاكرة هي الأخرى تدوِّن وتصوِّر بعدساتٍ غير عدساتِ الأعين الدقيقة المنضبطة، عدسات مطَّاطة مَرِنة، فخُفُوت الضَّيّ في عين أبي في هذه الواقعة وواقعات أخرى على غرارها، والتَلعثُم وهو الكبير في السِّنّ ومعه القلقلة في وقفته وارتباك الحركة، ليست الشيء ذاته الذَي يطوف بي في كل مرَّة عندما أتذكَّر، يندَسُّ

الخيال وينسج ويُفرط عندما أكون متكدِّرًا وعلى وشك الاكتئاب، وقد يكفُّ عني في أوقات الصفاء ويأتي التذكُّر مطابقًا لما شهدتُه بالفعل ودون زيادة، وكأن الخيال الذي هو جزءٌ مني يعمل بمعزلٍ عني وقادر على أن يعصف بي أنا ذاتي، يعبث ويضيف ويحذف حسبما يتراءى له..

الانكماش هو ردَّة الفعل التي انتابتني بعد أن رأيتُ كَسْرَته أمام هذا الشاب ذي النجمتَيْن فوق كتفيه، وبلا وعي أقتربُ منه متحسّسًا ضاغطًا على يده بيدي وهو غافلٌ عمَّا بداخلي، يحسَبُ أني أتودَّد راغبًا في حاجةٍ يقضيها لي!

أدرك بعدها، ليس بكثير، بعد عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة، ربما من استمرار تجهُّمي والظلام الذي بدَا على وجهي، ومالَ عليَّ هامسًا:

ـ ما تاخُدش ف بالك، الشغل هنا كده شَخْط ونَتْر وزعيق، أنا كمان باشْخُط وأبهدل العساكر اللي تحت إيدي.

من نظرة عيني إليه يفهم أني لا أصدِّق ما يقول، ويحاول ترميم الكآبة البادية عليَّ:

ـ آه والله بَبهدِلهم وساعات كمان أمِدّ إيدي!

كان يكذب، والله كان يكذب! فلم يكن قادرًا على زجرِ قطَّةٍ مدَّت رأسها وشاركته الوعاء الذي يأكل منه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يلقَى الشعبية فقط من أبسط الناس..

عساكر صغار، عمال البوفيه، صولات كبار في السِّنّ، وغيرهم من هذه النماذج التي أهلكتها الحياة، ينظرون إليه على أنه رجل مبروك وأقربهم إلى الله، ومنهم مَن يلجأ إليه ليدعوَ له دعوةً صالحة يفرّج بها الكرب الذي ألمَّ به، وبعد أن يفرغ ويُتمَّ دعاءَه يبدو الامتنانُ على هذا الذي طلب الدعاء وإحساسٌ بالراحة!

هو أيضًا الذي يَؤمُّ صلاتهم بزاوية صغيرة بأحد أركان القسم، عدَّة حُصُرٍ وساتر من خشب الأبلكاش عليه سهم يشير إلى موضع القِبْلَة، ويفتي في المسائل التي يعرضونها عليه، مسائل غاية في البساطة غير أنها مُرْبكة بالنسبة إليهم، فتاواه بالبَرَكة والسَّلِيقَة أو استنادًا إلى آياتٍ يحفظها من القرآن الكريم.

ورغم المنغِّصات التي يلقاها من بعض الضبَّاط، فإنه في العموم كان مرتاحًا ورجلًا على باب الله في أعين البسطاء وهم السواد الذي يتعامل معه، ومَنْ شذَّ منهم ولم يقتنع لا يجدُ سُبَّةً يسبُّه بها، كل ما يتحرك في نفسه عن أبي أنه «هليهلي» ولا يزيد، وهو حالته المعنوية في ذروتها، غبطة ودفء؛ حتى إنه يبقى بالساعة والساعتين بعد انتهاء ورديَّته، يفضِّل البقاء بالقسم ليؤمَّ صلاة العصر أو إلى المغرب إذا كُنَّا في الشتاء والنهار قصير، وليس القصد إمامة الصلاة وحدها، مشاعر الوُدِّ التي تحيط به، ويغدو وجهه غير الوجه الذي أراه عليه في البيت أو في الطريق إلى البيت، الوجه الذي كلُّه هَمٌّ..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المكان المخصص له في أرذَل مطرَح بالقسم..

الحائط في الحائط هو ودورة المياه، وكله أرْفُف وأختام وأحبار وأوراق عليها علامات الفِيش أو فوقها شخابيط، ومنها ما سقط على الأرض أو مبعثر في الأركان.

يخلع البيريه ويرشقه في مسمارٍ بالحائط، ثم يُخرج منديلًا عريضًا من جيبه، مما نسميه «منديل محلَّاوي»، يضعه ما بين عنقه وياقة السُّتْرة، وبعد ذلك يتسلمه المتزاحمون حوله، خيبته في التعامل معهم كانت تُحْبطني، هو صاحب البزَّة العسكرية وبيده تُقضَى الحاجات ومع ذلك لا يحترمونه؛ تهاونه يُخفضه عدة درجات في أعينهم، يعجز حتى عن فضِّ الزحام الذي حوله، جَلَبة وتدافُع وزَغْد في بعضهم البعض ولا الرجلَ يحترم المرأة ولا المرأة تحترم نفسها، لم يعُد ناقصًا وعلى وشك أن يفعلوه سوى أن ينغُزوه في كتفيه أو

يغلطوا فيه، وهو عاجز عن السيطرة وأقصى ما في وُسْعه:

ـ اقفوا طابور، مش كده، عيب ما يصحِّش!

وكلام آخر من الكلام الطري إلي أن يتدخل أحد الأساتذة في فَنِّ الزعيق فتنتظم الدنيا، ويكون رجلًا برتبةٍ أدنى، وأبي يشجعه:

ـ أيوه كده يا أومباشي خليل، ورِّيهم العين الحمرا.

وعندما ينصرف هذا الأومباشي وتعود الجلبة من جديد، كان يهدِّد المتزاحمين:

ـ وبعدين! أبعت اجيب الأومباشي خليل.

ونسمع صيحةً من أحد العساكر بأن: انتباه! والمأمور الذي يريد التبوُّل في دورة المياه الملاصقة يمضي أمامنا باستعجال؛ يخرج بعدها مرتاحًا ولفتة تجاه أبي:

ـ إيه يا حسَّان..

يخطفُ أبي البيريه ويضعه فوق رأسه، وإن كان زرارٌ بسترته مفتوحًا يُغلقه بسرعة:

ـ تحت أمرك يا سعادة الباشا.

يشير إليَّ المأمور وعلى وجهه ابتسامة:

ـ ابنك يا حسَّان؟

ـ أمَّال يا باشا، ابني واخويا وصاحبي كمان..

يمدُّ الرجل يدَه لي بورقةٍ من فئة الخمسين قرشًا والابتسامةُ لا تزال على وجهه، أتردد، وأبي الواقف إلى جواره يومئ إليَّ بعينيه أن أتقدَّم ولا أكسف يدَ الرجل، ثم يدفعني بإصبعه:

ـ بُوسْ إيد سعادة الباشا.

لم أفعل ما طلبه أبي، ليس إباءً أو عِزَّة نَفْس أو غير ذلك من الكلمات

الكبيرة؛ ارتبكت، وداعبني الرجل قائلًا:

ـ إنت ياواد عينك خضرا ولَّا إيه؟

ويتأمل وجه أبي مازحًا:

ـ إنت وِشَّك زَيّ وِشّ الحصان بالظبط يا حسان وكمان عنيك مدغشـشَة، أمَّال الوَاد دَه طالع لمين!

وأبي بفخر:

ـ يمكن للسـت حماتي، ولَّا لجدِّتي هانم أمَّ ابويا.

ويكون المأمور قد انصرف قبل أن يفرغ أبي من كلامه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٩

ارتدى أبي ملابسه الإفرنجية وطلب مني مرافقته..

هو طاقم إفرنجي واحد الذي عنده، ولم نكن نراه به إلَّا في المناسبات الخطيرة..

قميص مزركش، مزركش جدًّا، عشرون لونًا تقريبًا، بصراحةٍ مُستفزّ، والبنطال مرفوع إلى منتصف البطن بفردتَيْ حمَّالات.. لن أُطيل في حَقّ البنطال فنحن مأمورون بالستر، المهم أن أبي بدَا كالبلياتشو الذيَ يتجهَّز لأداء نمرة على المسرح!

كان هذا في أعقاب الإهانة التي تعرَّض لها أمامي في القسم من ذلك الضابط الصغير الفالت، وعلى ما أظنُّ كان يقصد تحسين صورته في عيني..

من ناحيتي أعرف أن الخروج معه ليس فيه جري ولا قفز ولا مراجيح وهذه الأشياء التي تُسعد القلب، غيرَ أني وافقتُ على الفور؛ أُحبُّه، وأودُّ الالتصاق به كالكتكوت الصغير الذي يداري نفسه تحت جَنَاح الدجاجة أُمِّه ملتمسًا الحنان لا الأكل والشرب فقط.

اصطحبني إلى قصرٍ فاخرٍ بشارع ٢٣ يوليو، إن لم تخُنِّي الذاكرة هو قصر «لطفي باشا شبار» أحد أثرياء بورسعيد الكبار في ذلك الوقت..

التقانا بالباب يومها أحد خَدَمه النوبيين، كان غليظًا في تعاملاته وسأل أبي بدهشة:

ـ عايزه إيه يا نفر إنتي والبتاعة دي اللي جاية معاكي (يقصدني)؟

ـ أنا حسَّان بتاع قسم العرب..

والنوبي بتعجُّب:

ـ إيه حسَّانة دي! مين حسَّانة دي!

ثم هاوَدَ أبي:

ـ خلاص حسانة حسانة! مفيس مُسكِل..

ويرفعُ سبَّابته في وجه أبي:

ـ وجايه تعملي إيه عندنا يا حسانة؟

ـ أسلِّم على الباشا.

ـ تسلِّمي على الباسا بتاع إيه، إنتي وهيَّه صخاب؟

ـ معرفة.

ـ إنتي معرفة مع الباسا، مجنونة إنتي!

ويتعوَّذ من أبي:

ـ سُبْحان الله! الإنسانة دي معندوس مفهوميَّة، الباسا كده مرَّة واحد!

لم يُفلت أبي من هذا الخادم إلَّا بقدوم سائق الباشا، كان نوبيًّا هو الآخر وأخذ أبي بالأحضان:

ـ حسَّانة! نوَّرتي المطرح، إيه دي إنتي فين؟ سألت عليكي مرة واتنين وتسعتاسر..

ويتابع بنبرة صوته الشبيهة بشرارات الكهرباء:

ـ سعادة باسا مبسوطة مِنِّك كتير..

ويُسرع إلى السيارة مُستخرِجًا من التابلوه الأمامي ظَرْفًا به عشرة جنيهات، سلَّمه لأبي:

ـ الباسا بتقولِّك كل سنة وإنتي طيبة..

فيبدو أن أبي أنجز له خدمة أو لأحد معارفه، وأبي الذي تبدَّل وجهه:

ـ فلوس! لا لا فلوس إيه، أنا جاي أسلِّم بس..

رفض بإصرار أخذ الظرف، وانصرف والسائق يقول لزميله:

ـ دي واحدة محترم، عفيفة نَفْس كمان..

والخادم يؤنِّب نفسه:

ـ أنا عملت واحد خسارة، غلطت في البني آدمة دي! كنت فاكرة إنها جاية تِسْحَت!

والسائق يوبِّخه:

ـ أكيد، مانتي طول عمرك واحد حمارة.

وعدنا إلى البيت وأنا فَخُورٌ بأبي، أسأله ونحن في الطريق: لماذا لم يأخذ الجنيهات العشرة، فقال:

ـ دي فلوس سُحْت.

ـ يعني إيه سُحت؟

لم يعرف كيف يشرح لي معنى هذه الكلمة، اكتفى بالقول:

ـ يعني فلوس حرام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إذ كان كالسيف في هذه المسائل.

ينام على لحم بطنه ولا يخون آيات القرآن التي يتلوها في صلاته، أو يقايض ببعض كرامته على عَطيَّةٍ من الناس يرجوها، غير أنه عفَّرَ ياقةَ سُترته الميري بعد ذلك..

عفَّرها قليلًا، أقول قليلًا لأنه لم يلجأ للأفعال الصريحة، لم يختلس من عُهْدته أو في محيط عمله تَقَاول مع آخرين ليؤدي لهم خدمات مقابل جُعْل معلوم سلفًا، حامَ فقط حول هذه المنطقة، قَبِلَ الإكراميات ثم مدَّ قدمه بعدها بمقدار خطوة، أصبح يوحي للمتعاملين معه من أصحاب المصالح بألَّا يختشوا منه فهو ممَّن يقبلون الإعانات! والله أعلم فيما كان سيئُول إليه حاله لو انجرف في

هذا الطريق.

والسبب أمي، اضطرته..

لها مصدر آخر يمدُّها بما تشتهي، والخاتم الذهب الذي ظهر فجأةً في إصبعها يشهد، وقبل ذلك السلسلة وحقيبة الخروج اللتان بدلفة الكومودينو، لكن ماذا تقول! نقود أبي كانت حلوة في عينيها، أو ربما تودُّ توريطه في مصيبةٍ لا يخرج منها!

ونجحت..

تعرف نقطة ضعفه ـ أنا ـ وتناوره بها، لا يمضي الأسبوع الأول من الشهر وتقلُّ الفلوس في البيت إلَّا وتشعل النار، نَكَد وعِراك أول الأمر ثم نُفاجَأ بها بثياب الخروج وبيدها حقيبة الملابس..

وإلى أين؟

إلى العجوز أمِّ ثلاث أسنان ذهب في فكِّها، وهي ألعَن منها، زوجها ذاته *(جدِّي)* والذي كان قصَّابًا وطول وعرض لم يقدر عليها، يُقال إنه مات كمدًا من أفعالها!

في كل مرَّة تجري فيها الزوابع بين أبي وأمي، كان يسألها بانزعاج:

ـ وليه يا بنت الحلال؟

ـ ودي عيشة دي..

وبكلامها السامِّ تلقِّنه درسًا في احتياجات البيوت، وهو ليس على لسانه سوى: لا حولَ ولا قوةَ إلَّا بالله، ويُعيد التساؤل:

ـ والولد!

ـ خلِّيه معاك، اشبع بيه..

هي أُمٌّ ولا أظنُّها تعني ما تقول، تهدِّد فقط، وهو لا يستطيع التصرف، هل يضرب الأرض أم يقف عند المفارق وأبواب الجوامع ويشحذ من الناس! يظلُّ يتذلَّل كي لا تتركنا، والغريب أني لم أكُنْ

أبكي أو حتى أدمَع وأتشبَّث بها، أسمع وأرى فقط، ومن بين ما أتذكَّره أني كنتُ أقترب من أبي متعلِّقًا بيده كأنما أنا وهو فريق وهي الفريق المقابل!

تلومُني بعدها لتعلُّقي بأبي دونها، أصمُت، تأخذني في أحضانها:

ـ مش أنا أُمَّك حبيبتك!

أظلُّ صامتًا..

ومرةً بعد مرة استجاب أبي، انزلق، قَبِلَ الإكراميَّات وألقاها في حِجْرِها، الأوراق النقدية من فئة ربع ونصف الجنيه التي يدعُها الناسَ له، وكانت في مجملها كثيرة ويمكن أن تفتح بيتًا، كان مستحيلًا أن ينظر إليها فيما مضى، ويتزرزر في وجه مَن يفعلها معه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ثاني مرة بالذات كانت شديدة عليه..

ففي المرة الأولى الرجل الذي تعامل معه كان حصيفًا، دسَّها له بين الأوراق ولم يلحظها أبي إلا آخر النهار، وكان كل شيء راح لحاله ونسي كُلٌّ منهما وجه الآخر، أما في المرة الثانية فكانت امرأة مرتاحة وغوايش من الذهب تلعب على معصميها كالشخاليل، بكل أريحيَّة وكعادتها في التعامل مع هلافيت الحكومة أخرجت له جنيهًا كاملًا وناولته له يدًا بيد، حدَّق فيه أول الأمر ثم في المرأة ولبث ربع دقيقة مُشتَّتًا بين «نعم» و«لا»، وبدَفعة حانية من لسانها مدَّ يده وهي تترفَّق به:

ـ دا مش مقامك يا حضرة الصول، دا للعيال تدخل عليهم بكيس فاكهة.

وأبي رأسه محنيٌّ إلى الأرض:

ـ يا ست هانم دا هو حِتّة عيِّل وعمري ما وكِّلته حرام، أنا هحُطُّه في أي جامع.

يقصد بالجامع طبعًا حِجْر أمي..

وتلحظُ وجودي فترمقني بابتسامة:

ـ ابنك؟

يومئ برأسه بانشراح، وتُخرِج هي جنيهًا آخَر لي غير أنه يأبى:

ـ لا لا والنبي يا ست هانم..

ويَحُول بيني وبين الجنيه، ووجهه يقول: أتلوَّث أنا فالله أعلم بحالي، أمَّا ابني فلا.

ظلَّت نفسه مخدوشةً عدَّة أيام، غير أن هذا الخدش كان قابلًا للرَّتْق بأعذارٍ ساقتها إليه نفسُه، أصبحت المسألة شبهَ عاديةٍ بعد ذلك، فلا أقول بأنها كانت عاديةً وتحدث كالروتين ومن دون أي وخز؛ إذ كانت بنفسهِ بعضُ الغضاضة ممَّا يفعله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١٠

لم أرَ عَمّ «الشنَّاوي» من قبل..

ليس له صورة في الذاكرة ولا نبرة صوت، أسمع عنه فقط، طرقَ علينا الباب ذات يومٍ وبيده مقطف به إوزَّة مُنكَّسة الرأس، لم أشعر منها أيضًا بصوتٍ ولا حركةٍ كما لو أنها نائمة أو مغشيٌّ عليها من الحَرّ.

هذا العمُّ الذي جاءنا رجل جِلف، وأقولها بملءِ فمي، وسبحان الله عندما تتنافر الأرواح، من أول نظرة لا ارتاح إليَّ ولا أنا ارتحتُ إليه، هو الذي بدأ بتقطيبة على وجهه وطلَّة سخيفة؛ بادلتُه نفورًا بنفور أنا الآخَر وكل هذا ونحن لا نزال بالباب، واستفهمتُ منه بأدبٍ وحذرٍ في الوقت نفسه:

ـ حضرتك مين؟

ـ أنا عمَّك يا حمار.

لم يقُلها بمزاح، فهذا الصنف من البشر لا يعرف المزاح وإن شرَعَ فيه تزْدَدْ رذالته على قلبك، قالها بنبرة جادَّة، كان واضحًا أنه يعنيها، ثم تركني بالباب مندهشًا من هذا الرد الصادم وخاض مباشرةً في البيت كما لو أنه يخوض في غيطه في البلد، ولسوء حظِّه أول ما همَّ بالجلوس فوق كنبتنا المكسورة طرحته أرضًا؛ سقط بداخلها سقطةً غشيمة، تقرفص تقريبًا ما بين حَشِيَّتها والألواح التي تحملها؛ وهاجت الإوزَّة ـ للإحاطة هي أشطر منه ـ لكنها صرَّفت حالها، في لحظة وَثَبتْ من المقطف وارتمت في حضن العم مُرفرفةً بجناحيها وهو يدفعها عنه، وبوَثْبةٍ أخرى بلغت أرضية الصالة تُكاكِي بأعلى صوتها ثم هامت في الشقة، وأنا أتابع دون أن أقدِّم للعمِّ أيَّة مساعدة، عافَر حتى هبَّ واقفًا يبحث عن الإوزَّة، احتمت بسرير أبي، اختبأت أسفل منه، شمَّر أكمامه وحاول جرَّها عدة مرات دون فائدة، في آخِر محاولة نقرت إصبعه والعمُّ يصيح فيها:

ـ يا بنت الكلب!

وأنا أشير له نحو الكنبة السليمة ليجلس ويرتاح، ولم أغفل عن الابتعاد عنه خطوتين إلى الوراء على سبيل الاحتياط! فمَا يُدريني بردَّة فعله تجاهي أنا الآخَر..

كنتُ قَلِقًا منه؛ لستُ متأكّدًا أنه عمي فعلًا أم أحد المجرمين الذين يهاجمون البيوت خاصةً أن تصرُّفاته ليست تصرفات أعمام، وحام في بالي أني قد أتعرَّض إلى الخنق أو أي حادث من الحوادث المؤسفة التي نسمعُ عنها! ما طمأنني بعض الشيء أن هؤلاء الأوغاد الذين يهجمون على البيوت لا يأتون بإوَزٍّ في عملياتهم الإجرامية.

بنبرةٍ آمرةٍ سألني:

ـ أبوك فين؟

ـ في الشغل.

ـ ووالدتك؟

ـ في السوق وزمانها طالعة على السلِّم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يَطُل الأمر، وصلت أمي..

ـ إزيَّك يا سي شِنَّاوي؟

ـ أهلًا يا امُّ عادل، سلامات.

ونقرها بعينه ثم تحوَّل إليَّ بنفس النقرة، ومعه حق؛ إذ كانت تلوك لُبانَةً في فمها بصوتٍ كما الفرقعات الصغيرة، وبثوبٍ فتحةُ صدره كفتحة البحر المالح، أنا نفسي شعرتُ بالكسوف فما بال ردَّة فعل هذا العمِّ اللطيف!

وخلَّفتنا معتصمةً بغرفتها ليُعاود العمُّ التطلُّع إليَّ، تأمَّلني من أسفل إلى أعلى ثم بالعكس:

ـ إنت بقَى اللي اسمك عادل؟

لم أُجِب، اكتفيتُ بإيماءةٍ، ولم تتخاطب ألسنتُنا سوى بعدَّة كلمات:

ـ الدنيا حَرّ عندكم..

ـ آه حَرّ..

ـ وال...

ويسكت ثم يهمُّ بالكلام من جديد:

ـ وتعرف يا عادل...

لا يواصل أيضًا، يبدو أنها كانت نصيحة أو جملة مفيدة استخسرها فيَّ..

وأقبلت الإوزَّة تتمرجح في مشيتها، هذه هي طريقة الإوز عندما يتحرك، تحسَّست رُكبة العمّ بمنقارها فضربها عليه بكفِّ يده؛ أسرعت هاربةً ثم قبعت في أحد الأركان وأي واحد منَّا يتفوَّه بكلمة أو حتى يعطس أو يسعل تَشْخَصُ ببصرها إليه، وبعد أن بلغَ ضجرُها منَّا ومن بيتنا مُنتهَاه دفنت رأسها في جناحيها ونامت، لم تستيقظ إلَّا على جرس الباب.

كان أبي، وأول ما وجد أخاهُ طار من الفرحة؛ علا صوته بالترحيب ومعه العناق، ويسأل عمَّن هم في البلد:

ـ وازَّيِّ أختي نفيسة؟ مش بخير..

يجيبه العمُّ أنها بخير..

ـ والعيال؟ زغلول والنبوي وعيشة.

ـ الحمد لله.

وبنبرةٍ حَذِرَة:

ـ والست فاطمة؟

لم يتجاوب العمُّ مع هذا السؤال، هزَّ رأسه وسكت، ففهم أبي وعرَّج إلى طريقٍ آخَر:

ـ ويا ترى عدِّيت على السلكاوي؟

ـ وقعدت معاه ييجي ساعتين.

ثم رمقني العم رمقةً على شاكلة الرمقات التي كان يُسدِّدها إليَّ هذا السلكاوي كلَّما التقينا، أكذب لو قُلتُ إن رمقة العمِّ مرَّت عليَّ بحُسْبانها مجرد نظرة أو التفاتة عين عادية، وتَغشَّاني بعضُ التوتر أو لنَقُل بعضٌ من الحيرة وعدم الراحة..

ما له بي هو والسلكاوي؟!

هل بي شيءٌ يشغلهما؟

واستأذنت من أبي بحجة مراجعة واجبات المدرسة، وهو يراجعني:

ـ وليه يا حبيبي، ما انْتَ قاعد معانا.

ويلتفت إلى أخيه:

ـ أَصْل دا الحيلة يا شناوي، هو اللي طِلِعْت بيه من الدنيا.

العمُّ لا يُعلِّق، عيناهُ هما اللتان تُعلِّقان، طافَ بهما عليَّ ثم على أبي، وهو نفسه الشعاع الذي خرج من عينيه قبل لحظات والتعبير الغامض الذي أتحسَّسُ منه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وانفرد هو وأبي بنفسيهما..

وعندما غادَرَنَا العمُّ جمعنا أبي، وقال لنا بفرحة:

ـ الشناوي بارك الله فيه قلبه كبير، إداني تلاتين جنيه!

ويطرق على جيب سُتْرته:

ـ تلَات ورقات، كل ورقة بعشرة جنيه.

ويزيدُنا ممَّا عنده:

ـ وإيه يا وداد! لا رِضي ياخُد وَصْل ولا أكتب كمبيالة على نفسي.

ـ فلوس إيه دي؟ مساعدة يعني؟

ـ لا لا مساعدة إيه! يتهيَّألي كده إن الفلوس دي إيجار العشر قراريط اللي فاتهُملِي أبويا.

ـ يتهيَألك! على العموم يُشكر.

ـ آه والله يُشكر.

ـ طَبْ مَاسَألتُوش؟

ـ أسأل دا إيه، دا أخويا ومَايصَحِّش، مَدِّيت إيدي وخدتهم وخلاص.

وهي ببوادر غضب:

ـ دي الأرض تحت ضرسه بقالها عشر سنين؟

ـ وآهو دفع..

ـ يعني تلاتة جنيه عن كل سنة!

ـ أنا عارف بقَى!

ـ طَبْ ما تعرض عليه يشتري، وآهو القرشين اللي هييجوا منها ينفعونا.

ـ وهو أنا لسَّه هَعْرِض، ما هو جاي علشان كده.

ـ وناوي على إيه؟

ـ هَبيع، ضروري أبيع، ومِشْ كده وبس هَقُولُّه كمان لو عايز الأرض نتحاَسبوا قبلها على حصتي في البيت، هو دا الشرط.

ويعود بمنكبيه إلى ظَهْر الكنبة مُعجبًا بنفسه، وأمي تسأل:

ـ وإمتى الكلام ده؟

ـ أنا خلاص قطعت عِرْق وسيَّحت دم، بعد بكره هَاكُون عنده.

ـ بس إوعى يضحكوا عليك في البلد، حَكِم أنا عارفاك.

ـ وبعدين!

وبطرف عينه يتجه إليَّ مُحذِّرًا من أني موجود وأسمعُ ما يُقال، وهي بهزَّةِ رأسٍ ساخرة:

ـ آدِينا هَنْشُوف..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١١

وسافرنا إلى العَمِّ..

أحاط أبي كتفي بذراعه، وتوجَّهنا إلى بلدته التي نشأ وترعرع بها..

ليست بلدة بقدر ما هي عزبة أو كَفْر، وباص في باص في عربة كارُّو بالنَّفَر غير شوطٍ لا بأس به على الأقدام، وما إن وصلنا بيت جَدِّي «العطفي» وطرقنا الباب حتى فتح لنا ولد وجهُه كوجهِ الخُنْفُساء.

وأنا لا أتجنَّى عليه؛ في الولد فعلًا شيء من شكل الخنافس أو على الأقلّ يُذكِّرُك بها، اسمه «النبوي» أصغر أولاد عمِّي، ولد كئيب لا رحَّب بنَا ولا سأل مَنْ أنتما أوتَفوَّه بكلمة، خلَّفنا مسرعًا، غفل أيضًا عن مواربة الباب على أمه التي بالداخل، تركه مفتوحًا عن آخره وطار في الخلاء.

ولمَحْنا أنا وأبي امرأةً تتحلَّق بطستٍ للغسيل، لمحتنا هي الأخرى لكن مَنْ نحن بالضبط؟ لا تعرف؛ أشعَّة شمس الظهيرة في مواجهتها مباشرةً وبَدَوْنا أمامها كالأطياف؛ ظلَّلت عينيها بكفِّ يدها ومالت برأسها نحونا لتتأكَّد.. الحمد لله عرفتنا، أقصد عرفت أبي، وبعَجَلٍ طفقت تنفض عن ذراعيها رغوة الصابون وما علق منه بصدر جلبابها، وتنادي علينا بصوتٍ فرحان:

ـ حسَّان! أهلًا أهلًا نوَّرت يا غالي، ادخل يا خُويَا.

وتَخشَّب أبي في موضعه؛ ارتبك، لحظاتٍ وتحرَّكت شفتاه:

ـ فاطمة!

خرجت منه بصوتٍ خافتٍ ثم ابتسم، ودلفنا من الباب وكُلٌّ منهما يتأمل الآخر دون كلام، وما هذا الصمتُ الدَّسِمُ الذي عقد لسانيهما سوى رسائل يتبادلانها؛ ابتسامة أخرى من أبي، عريضة هذه المرة عن البسمة الخَجُول التي سبقت، وتبدَّل وجهه، سَرَتْ فيه الدماء، وخُيِّل إليَّ أن الثنيات والتجاعيد الخفيفة التي بأسفل عينيه وحوافِّ

الشفتين راح أكثرها.

بادَلتْه الابتسام، وكانت أكمامُ جلبابها مشمورةً إلى ما بعد المرفقين بسبب ما كانت فيه من غسيل، همَّت بفَرْد الأكمام كعادة النسوة في الأرياف عندما يلتقين بمَنْ ليسوا من المحارم، غير أنها عدلت وتركت ذراعيها عاريتين أمامه وإن كان الخجل ذهب ببصرها إلى الأرض، ذراعاها ـ والله ـ كانتا كقطعتَي الشهد.

بنبرةٍ عاتبةٍ تقول لأبي:

ـ يعني جيت! مش كُتّ حالف ما تطُبّ البلد تاني.

تعتذر عيناه..

ـ الله يسامحك بقَى.

ـ كُلُّه مكتوب يا فاطمة.

عكارة خفيفة من عكارات الهواء تهبط فوق كتفه، تزيحها بإصبعها سائلةً:

ـ مالك يا خويا، دَبْلان كده ليه؟

ـ موكوس يا فاطمة..

ـ بعيد الشرّ، إيه اللي جرى؟

ـ يا ريتني ما سِبْت البلد، أول هام إني خسرتك.

ترمقُه دون تعليق، ويذهب هو بالحديث إلى منحًى آخَر:

ـ وعاملة إيه مع الشناوي؟

ـ آهو يوم حلو وعشرة مَرَار..

وتفاجئه:

ـ تعرف يا حسان إنك جِتْنِي في المنام من ييجي عشر تيَّام!

لا يجدُ كلمةً يقولها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تنشط أُذُناي لسماعِ ما تبقَّى من حديثهما؛ انشغلتُ بالتجوُّل في أركان البيت..

بيت معقول قياسًا على البيوت التي تجاوره؛ حُوش واسع وأربعة مَطَارح وزريبة ترقدُ بها بهيمةٌ غير عَنْزَتين تهيمان في الحوش، وأكوام حطب فوق السطح لزوم الأفران والكوانين، خَلَا الجوُّ للعمِّ بعد وفاة الجَدِّ ووضع يده على كلِّ هذا؛ حتى طست الغسيل الذي كان أمام الست فاطمة عندما جئنا، قال لي أبي أثناء العودة إنه الآخر من آثار الجَدِّ!

أثناء تجوالي يصلُ إليَّ حَكْيُهما من جديد، غير أنه كان يخفتُ أحيانًا ويُسمع بصعوبة:

ـ ابنك ما شاء الله!

ـ عادل..

ـ ربِّنا يجعله عادل على طُول..

ويخفُتُ صوتها إلى أدنى درجة:

ـ يا ريته كان..

ـ دا أنا ياما قلت لنفسي الكلمة دي..

ـ يا ألف خسارة يا حسان!

ثم تسأله:

ـ وتَعْبَان في عيشتك ولَّا مرتاح؟

ـ أكدب لو قلت إن الست بتاعتي مريَّحاني.

ـ يا عيني يا خويا!

ـ وانتي يا فاطمة سايْسِي الشناوي ومشّي أمورك، دا في الأول والآخر أبو عِيَالك.

وهي ساهية عمَّا يقول.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١٢

على غِرَار خيباته السابقة، خابَ أبي من جديد..

القراريط العشرة هي كل ما يملِكُ في الحياة، ومع ذلك تعامل معها كما لو أنها ثمرة كرنب تُباع وتُشترى على السريع؛ فأول ما أرسلوا في طلب عمّي وحضر ووراءه عمَّتِي وتربَّعا بجوارنا أنا وأبي على حصيرة بالحوش، والله أوَّل ما بدأوا ببسم الله الرحمن الرحيم! تململَ أبي قائلًا:

ـ والنبي يا جماعة ندخل في الموضوع قوام قوام؛ حَكِمْ أنا مستعجل وعايز أرجَع قبل الدنيا ما تليِّل.

والعَمُّ مرتاح إلى هذه البداية، حريص أيضًا على أن يعود أبي قبل العصر وليس قبل الليل، وألَّا يلتقي بالناس ويعرف الأسعار..

أسرع قائلًا لأبي:

ـ يا سلام! ماشي كلامك.

والعمَّة في عينيها قلق؛ تخشى أن يُلاك أبي في فمِ هذا الضلالي مثلما تُلاكُ أعواد الجرجير، انقرَصَتْ منه من قبل وتعرفه كما تعرف كَبْشَة يدها، لَاوَعَها سنواتٍ حتى اشترى نصيبها بملاليم، هي الأكبر سِنًّا وبمراحل، يُقال إنها أرضعت هذا العَمَّ مع ابنتها البِكْريَّة عندما انحاشَ اللَّبَن في صدرِ الأُمِّ الكبيرة، أبي هو مَنْ وُلِد بعد العمَّة بسنوات والعم هو العكارة الأخيرة..

تعيش العمة مع أولادها في البلد، هنا في آخر الشارع، خِلْفتها كلها بنات والعيِّل الوحيد الذي خرجت به من الدنيا عبيط ولا يصلُح لشيء، وليست هذه وجهة نظر من عندي، هذا كلام الأطبَّاء الذين كشفوا عليه وشخَّصوا حالته، والزوج منتهٍ، أقصى ما في وُسْعه العطس والسُّعال..

العمَّة مسكينة! القلب مع أبي غير أنها مجبورة على مساعدة

العَمِّ؛ تخشى بأسه، خليطٌ بين الأخ وابن الليل، وهو الذي معها الآنَ ومن الجائز أن تحتاجه يومًا ما؛ أما أبي فرَجُل «سَبَهْلِلي» وهناك عند البحر المالح، وحتى إن كان بجوارها هنا لا منفعة منه قياسًا على المجرم الآخَر.

كفَّة الميزان بداخلها مائلة، غير أنها تحاول إرضاءَ ضميرها ولو بالكَذِب، تشير بسبَّابتها إلى الأخَوَيْن، وبتأكيدٍ بعضه حقيقي وبقيته مُصْطنَع:

ـ بس نِقْرُوا الفاتحة الأول على الظالم واللي يطمع في أخوه.

والعمُّ المدرَّب على قراءة الفواتح:

ـ بس كده! عشرين فاتحة مش فاتحة واحدة.

ويلحظُ انكماشي والتصاقي بأبي، فيخطفني بنظرةٍ وكأنه يرحب بي:

ـ أهلًا يا سي عادل.

له موقف مني عندما جاءنا في بورسعيد، عيّل ثقيل الظِّلّ بالنسبة إليه وربما أيضًا وسوس له السَّلكاوي بشيءٍ عني، والآنَ كل كلمة تُقال بينه وبين أبي عن بيع الأرض سوف أنقلها إلى أمي بالحرف..

حَدْسُه صحيح فهذا ما كان سيحدث؛ لذا حرص على ألَّا أبقى معهم، نادَى على ابنه «النبوي» الذي التقانا بالباب عندما وصلنا، ولا فائدة، الولد شاطح في الخلاء كما «الحِدَّاية» أو الغراب، أيقظت له الست فاطمة ولده الثاني «زغلول»، جاءنا يَدعكُ عينيه ووجهه كَشِر، طلب منه أبوه أن يهتمَّ بأمري إلى أن يفرغوا ممَّا هم فيه، وأبي يوصيه عليَّ وهو بصوتٍ كالزَّوَمان:

ـ حاضر يا عَمّ..

زغلول هذا أعوذُ بالله! تخين جدًّا وأسفل أنفه زَغَبٌ كثيف، بدايات شَارب رغم حداثة سِنِّه، الأولاد فعلًا سِرُّ آبائهم، فالنبوي كان نطعًا وبليدًا لكن هذا الزغلول أعتَى منه، ماركة ثانية، شَرَّاني؛ قلبي

انقبض منه..

أخذَني لِلَّعب مع أصحابه أمام البيت، وبعد عدَّة غمزات تبادلها معهم اقترحوا أن نلعب لعبة «الاستغمَّاية» وأن أكون «الكلب الحيران» وأنا بِعَبَطِي فرحت.

أول جولة كانت ممتعة، انبسطتُ منها، لعبنا حول البيت ولله الحمد وُفِّقت؛ أمسكت بواحدٍ منهم وكان هذا مجرَّد جَرِّ رِجْل، سرحوا بي بعدها في مجاهل الكَفْر ثم «الاستغمَّاية» من جديد، عصبوا عينَي كالمرَّة السابقة وقالوا: هيَّا انطلق وأمسك بنا يا عفريت!

وهنا المقلب، فكلهم فَصُّ ملح وذاب، هربوا، طفشوا، اللهُ أعلَم أين ذهبوا وتركوني كالعنزة التائهة!

ظللتُ أبحثُ من حارةٍ إلى حارة حتى تُهْتُ وفعلَتْ بي الكلابُ أفاعيلها، نُباح وخرابيش وتحرُّش، كلاب لا أدب ولا ذوق ولا تعرف حتى الترحيب بالغرباء، أنقذني رجل طيب؛ أشفق عليَّ وأعادني إلى البيت بعد أشواطٍ من النَّهْنهَة والبكاء.

وكان العَمُّ قد أجهز على أبي ووقَّع الشاويش حسَّان على العقد وتسلَّم أغلب الثمن، وما إن هللتُ عليهم بهيئتي المُزْرية وآثار البكاء حتى اصفرَّ وجه أبي واخضرَّ، وهو يستمع إلى ما يقوله الرجلِ الذي أنقذني على الحالة التي وجدني فيها، تقريبًا انهار، وطفقَ يقلِّب فيَّ وفي ثيابي بحثًا عن الإصابات، وبأعلى صوته:

ـ يا نهار مش فايت، إلَّا عادل!

ويرفع سبَّابته عاليًا:

ـ وقَسَمًا بالله...

ولا يكمل ما يهدِّد به، وأنا أُعاود البكاء رغم أني هدأتُ ولا حاجة للنحيب، وبحركةٍ تمثيليةٍ متقنة من حركات المليجي أو استفان روستي يصيح العَمّ:

ـ آه يا قليل الأدب يا زغلول!

عشر دقائق يصيح ويتوعَّد مُدَّعيًا الغضب، وشخط في زوجته كي تسعفه بعصًا يؤدبه بها عندما يعود، وخطفني أبي خطفًا من بينهم وهو يقول:

ـ سلامو عليكم..

وابتسم لي العمُّ مع تربيتة ترضية على كتفي، وَدِدْتُ لو أعَضُّ أو أهبِش يده هذه التي تُربِّتُ عليَّ، وعانقت العمَّة أبي ودمعةٌ تطفرُ من عينيها، سلَّمتْ الست فاطمة أيضًا عليه بعد أن غطَّت كفَّ يدها بكُمِّ جلبابها والعمُّ عيناه تتابعان، وبالنسبة لي غمرتني المرأتان بفيضٍ من القُبَل غير الاعتذارات عمَّا وقع لي وكلام من الكلام الحلو الذي يطيِّب الخاطر، لم أشعر إلا بعد أن رجعتُ أن كُلًّا منهما دسَّتْ أصابعها في جيب بنطالي أثناء العِنَاق؛ إذ عثرتُ على ورقةٍ بجنيه وأخرى بنصف جنيه، قال لي قلبي يومها إن الجنيه من الست فاطمة؛ فعناقُها لي تخلَّلته ضغطاتٌ حانية ونظرات عينيها كانت أكثر دفئًا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١٣

ورجعنا إلى بورسعيد..

كان هذا اليوم على ما أتذكَّر أحد أيام صيف ١٩٦٩، وبورسعيد بكامل أهلها لم تُهجَّر بعدُ أُسْوةً بالإسماعيلية والسويس.

هبطنا من الباص بجوار المسجد العبَّاسي حيث محطة الحافلات في هذا الوقت، وأبي يكاد يفضح نفسه، كل خمس دقائق يتحسَّس ملابسه ويطمئنُّ على الفلوس، كان فرحان بها فرحة المحروم الذي سقطت في يده كعكةٌ من السماء، وحَذِرًا من أن يخطفها أحد سناكيح الشوارع، فله تجارب أليمة معهم في بداياته ببورسعيد.

وأنا أُمَأمِئ وراءه كما النعجة الصغيرة خلف أُمِّها:

ـ عايز ساعة، وعايز وعايز..

وأتجرَّأ وأنا الذي لم أطلب منه شيئًا من قبل:

ـ وبِسْكلِتَّة كمان..

وهو ليس على لسانه سوى:

ـ من عِنيَّه الاتنين.

غير أنه اكتفى بالساعة فقط بعد أن بلَّل ريقي بشوبِّ عصير، أراد أن يُدخلَ السعادةَ إلى قلبه هو الآخَر، فمن أول كُشْك صادفنا ابتاعَ عُلْبتَي «بلمونت» مرة واحدة ومن ذات العشرين سيجارة! فهو لم يكن يتعامل من قبل سوى مع العُلَب ذوات السجائر العشر[2] فقط، وإذا كان البائع متسامحًا كان يشتريها منه بالفَرْط، وانفتح، فإضافةً إلى السجائر اشترى لنفسه أيضًا مُشْطًا وخاتم فَالصُو من عجوزٍ يقف ببضاعته في شارع التلاتيني، ثم عبر بي بطن الشارع إلى قهوة السلكاوي حيث نداءات الصبية على المشاريب والحركة والدوشة والمقاعد أغلبها مشغول، وحماسةٌ مغموسةٌ بفرحةٍ على

الوجوه مع شَدْو «السّيِتَ» من مذياع يعلو لوحًا من الخشب مرشوقًا بالحائط:

والله زمان يا سلاحي..

اشتقت لك في كفاحي..

انطق وقُول أنا صاحي..

يا حرب والله زمان..

وكان قد سبق الغناءَ عِدَّةُ مارشات حماسية، تلاها المتحدث العسكري ببيانٍ عن تمكُّن رجالنا من عبور القناة من نقطةٍ بين الإسماعيلية والسويس وعودتهم سالمين وبحوزتهم أسيران من الصهاينة، والسلكاوي هناك في جوف المقهى ملْهِيٌّ في عالَمه الخاص، بدا كمَنْ لا يشعر بفرحة الناس ولا بأن بياناً مُهمًّا أُذيع من الراديو والقهوة كلها تقف على أرجلها.. كان ينهر أحد صِبْيته، يزغده في كتفه وأجنابه ويتهمه بأن «يده طويلة» و«يخنصَر» من حساب المشاريب، وأبي بالخاتم الفالصو الذي بإصبعه يتبختر داخلًا إليه..

التقانا بابتسامةٍ هي والتكشيرة سواء، وهذا هو كل الترحيب..

فالقروش العشرة التي اختلسها صَبيُّه من وراء ظهره لخبطته، أنسَتهُ البشاشة التي كان يلقانا بها؛ فجديدةٌ عليه أن يضحك أحدٌ عليه وهو الذي يضحك على العِفْريت ذاته! وأبي يُخفِّف عنه إلى أن انكسف من نفسه وهدَأ. طَفِقَ أبي يقصُّ عليه بعدها ما جرى في مشوارنا بالبلدة والسلكاوي يتعكَّر مزاجه من جديد؛ إذ كانت عيناه هو الآخَر على هذه القراريط لولا الضَّلالي الآخَر «عمّي» الذي أسرع وخطفها من أمامه!

هزَّ رأسه بأسى وكان بيده قلمٌ من نوع «الكوبيا»، طرق بطرفه عدَّة مرَّات على سِنَّتيْه الأماميتين، ثم شرع في الحديث:

ـ يعني خلاص بعت؟!

والشاويش حسَّان عيناه تضحكان ودُخَان سيجارته يخرج من فِيهِ مع

الكلام:

ـ وقبضت كمان..

وبزهوٍ تَمطَّى بأقصى ما فيه عائدًا بمنكبيه إلى ظهر المقعد، بدَا شبيهًا بفناننا الكبير فؤاد المهندس في مسرحية «السكرتير الفنِّي» عندما أبرم اتفاقًا مع ثُلَّة نصَّابين وظن أن الدنيا كلها حِيزَت له، والسلكاوي يتحدَّث مع نفسه وأبي في آنٍ:

ـ آه يا ابْن الذين يا شناوي! دا انت كُتّ معايا مفيش تَلَاتْ أربع تيَّام وقاعد على الكرسي ده (ويشير إلى المقعد الذي يجلس عليه أبي)، ويعني لا قلت ولا فتحت سيرة!

ويدنو برأسه من أبي:

ـ وبعت له على كده بكام؟

ـ بتُلْتمِيت جنيه، قبضت مِتِين وخمسين والباقي بعد شهرين تلاتة.

ـ العشرة؟!

ـ آه العشرة..

ـ جَتَك خيبة، ويكون لها شَنَب وديل!

ويدفع أبي في كتفه:

ـ يا مغفَّل دي الأرض داخلة الكردون وبُكره تبقى مباني!

ـ مباني!

ـ آه يا خويا مباني، وسعرها دلوقتي من سبعميَّة تمنميَّة لحدّ ألف، مش تفطن كده وتسأل وتطقَّس على الأسعار.

ويحرِّض أبي:

ـ يلَّا يلَّا الحَقْ نفسك، لِمّ الناس عليه وافضحه، وأنا مستعد أشتريهم منك بربعميت جنيه.

بكوّرِ أبي كفَّه ويضعها أسفل ذقنه ويسكت، اتَّخذ وضع المصدومين أو مَنْ هم في ورطة، والسلكاوي يؤوِّل هذا الصمت على أنه يطمع في المزيد:

ـ ويا سيدي بلاش من الرُّبعميَّة، خلِّيهم خمسميَّة إيه رأيك؟

ويلاحق أبي باستفسارٍ آخَر:

ـ وادِّيته حصَّتك في البيت بكام؟

ـ مفتحناش كلام..

ـ ليه؟

ـ انكسَفْت؛ أبو عيال وبعدين الـ...

ويصمُت..

ـ إيه، ما تكمِّل، ولَّا مراعي فاطمة!

يلوح الغضب على وجه أبي:

ـ عيب! اختشي.

ثمَّة رعشة تسري بأصابع أبي القابضة على السيجارة، وكان رباط حذائه مفكوكًا مالَ ليعيد عقده، غير أنه فشل وعاد الرباط إلى الدَّلْدلة التي كان عليها، وانكتم أبي تقريبًا أو عاد يتحمَّل، انصرف عائدًا إلى البيت لتستقبله أمي مُستفسرةً:

ـ سَبْع ولَّا ضبع؟

ـ الحمد لله..

ـ بِعْت بكام؟

ـ تُلْتمِيت جنيه.

ـ ودا شوية ولَّا كتير؟

ـ هو دا سعر السوق.

ـ أُمَّال مالك؟

ـ تَعبان من المشوار.

تسألُني على انفرادٍ غير أني لم أشأ إخبارها بالمقلب الذي شربه، حفظت السرَّ شفقةً به وعادت هي إليه:

ـ كُنَّا عايزين.. وعايزين.. وعايزين..

أوقفها بإشارةٍ من يده وأخرج لها كلَّ ما تبقَّى معه، مائتين وخمسة وثلاثين جنيهًا، رماها في حِجْرها وفَرَدَ الغطاء ونام بملابسه التي سافر بها، لم يخلع سوى الحذاء، ولم يذهب إلى الشُّغْل في اليوم التالي؛ شعر بالدُّوار وتقيَّأ عدَّة مرَّات..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١٤

يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٦٩ هو أشدُّ أيامي ظلامًا..

ما قبل هذا اليوم كنتُ مشوَّشًا في فهمي لعلاقة أمي بالمدعوِّ الفار، مُشتَّتًا بين استنكارٍ وغضب، كان هذا عالَمي، عالَم الصغار ناقصي الوعي، أستثارُ فقط عندما يشاركني أحدٌ في أمي ويبدأ الغضب عندما تتعلَّق به، وأقصد بالتعلُّق ما كنتُ ألاحظه من اهتمامها بهذا المخلوق، هذه كانت مشكلتي لا أكثر؛ إذ اعتبرتُ كلَّ تقارُب بينها وبين آخَر خَصْمًا مما لديَّ عندها! أُفقي كان محصورًا في هذا الغرض الطفوليّ، غرائزي أيضًا لم تنضج بعد؛ بالذات منها الغريزة الجنسية، ونبَّهتني إلى أنه ربما بينها وبينه ما هو أعمَق وليس فقط تلك الضلالات الخفيفة التي أهيمُ فيها!

والآن كبُرت بعض الشيء..

وفرَّقتُ بين الذَّكَر والأنثى وعرفتُ ما يبتغيه كُلٌّ من الآخَر، وصار غضبي غضبَ الصِّبْية الذين يخطون نحو سنِّ الشباب وأول شيء يدركونه هو هذا، بقي معي الاستنكار والغضب اللذان لازماني منذ الصِّغَر لكن لحق بهما التوجُّس وبالغضب غضبٌ أشد.

وكنتُ أكتم في قلبي، فمع مَنْ أتكلَّم؟ مع أبي! استحالة أن أنطق بكلامٍ مثل هذا أمامه..

ولأُخفِّف عن نفسي كنتُ ألجأ إلى أكذَب الحلول، أتصور الأمر على أنه تهيُّؤات وأني ولد شكَّاك! إلى أن انجلتِ الحقيقة في اليوم الذي أشرتُ إليه، خرق الدليل سمعي وبصري وتحوَّل ما بداخلي إلى بوادر انتقام من كلِّ مِن يؤذيني ويؤذي أبي فنحن في كِفَّة واحدة، وتصادف أن ترادَفَ هذا مع الخديعة التي تعرَّض إليها من أخيه؛ فاتسعت مساحة الانتقام في قلبي لتشمله هو الآخَر!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في هذا اليوم العابس سافر أبي إلى البلدة ليتسلَّم المبلغ

المتبقِّي له، تناهَى إليَّ صوته من الصالة وكان ضوء الصباح في بداياته ويتسرَّب خفيفًا من خَصَاص الشيش وأنا بين اليقظة والنوم.

كان يتألم من أخيه، ومُصمِّمًا على ألَّا يعود من البلدة إلَّا بعد أن يتحصَّل على التعويض الكافي عن هذا العقد الذي تورَّط فيه، وأمي التي عرفت ما حدث ـ منه وليس مني ـ تهدِّئه وتقترح عليه أن يصطحبَ معه السلكاوي ليؤازره، غير أنه هزَّ كتفه رافضًا..

ـ طب خلِّي بالك من نفسك.

قالتها بطِيبَة، فليس الرديء رديئًا على طول الخط، مع الشَّرّ الكامن فيه قد نجد بعض الخير، السفَّاح القاتل ذاته قد تنتابُه لحظاتٌ يعود فيها إلى إنسانيَّته!

ويتجه أبي إلى الباب خارجًا وأمي تسألُه:

ـ وهتغيب؟

يومئ برأسه بأن: نعم، وأسمعُ صفقة الباب..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تصادفني أمي في الصالة بعدها بقرابة الساعة وأنا أحمل حقيبة المدرسة وأكاد أخرج، تقول وهي تتثاءَب:

ـ أنا داخلة أكمِّل نوم.

وقبل أن أنطلق تسألُني:

ـ وهترجع إمتى؟

ـ زَيّ كل يوم، مع أدان العصر.

وأهبطُ على الدَّرَجِ لألقَى الفار جالسًا على مقعد أمام باب العمارة، بطاقمه السَّفاري وشبشب البيت ما زال في قدميه..

ـ إزَّيَك يا عدُّولة..

قالها ببشاشةٍ متوقعًا أن أقبل عليه، لم أفعل، أومأتُ إليه بوجهٍ باردٍ ومضيتُ في طريقي، وعيناه تتابعانني إلى أن واراني الشارع.

وشارع في آخر وما إن اخترقتُ شارع «الروضة» واقتربتُ من سوق السمك ـ وهو طريقي المعتاد إلى المدرسة ـ حتى شهدتُ جلبةً عاليةً وتماسكًا بالأيدي، مشاجرة بين بعض أصحاب مَحالِّ السمك وباعة سَرِّيحة يقفون ببضاعتهم في الشارع، هذا ما خمَّنته، ألهتني بعد ذلك إصابةٌ طالت رأسي من طاولة سمك فارغة قذفها أحدُهم على آخَر؛ سقطتُ على إثرها على أرضية الشارع أنا والطاولة معًا لتنزف الدماء من جبهتي، الإصابة لم تكن شديدة غير أنَّ الدماء التي نزفت لوَّثت ملابسي والحقيبة؛ بالتالي لم أستطع الذَّهاب إلى المدرسة، ولم أشأ إيقاظ أمي دخلتُ على الفور إلى غرفتي، وتمدَّدتُ على السرير بثوب المدرسة، أظنُّ أني غفوتُ، أكيد غفوتُ فقد جفلتُ وبما يشبه الخضَّة على صوت باب الشقة وهو يُغلق بصوت كما الرَّزْع، وأمي بصوتٍ غاضبٍ محذِّر:

ـ مش تخلِّي بالك، عايز تودِّينا ف داهية!

وتلوم نفسها:

ـ يا ريتني ما ادِّيتك المفتاح!

ـ غصب عني يا وداد، ما اعرفش اتهبد مني كده ليه!، يمكن شوية هوَا..

ـ وحرَّصت وانت طالع؟

ـ اطمِّني..

كان زكريا الفار..

ولبثتُ أنا دون حركة، ليس بقصد التحقُّق أو التأهُّب لفعلٍ ما، لا هذا ولا ذاك؛ تعطَّلتُ، أنا ويدي ولساني وكل جارحة في جسدي، فخلايا الفعل والحركة أُغشي عليها ولم تُسعفني بقرار أو خطوة أخطوها، لم يتبقَّ يَقِظًا فيَّ سوى أُذنَيَّ وعينَيَّ، الجوارح السالبة التي تلتقط

وتعجز عن أن تفعل..

ومع أنفاسي التي لا تزال تعمل، تصل إليَّ أصواتهما من الصالة..

مقاعد تتحرَّك خفيفًا جرَّاء دفعات أقدام غير منتبهة، همس، وصدَّات أنثوية تثير أكثر مما تمنع!

ويهدآن..

جلسا أخيرًا على الكنبة، وصمتٌ أعقبه كلامٌ بنبرةٍ شبه خافتة:

ـ من الصبح بدري وأنا قاعد له قُدَّام البيت، وشُفته وهو خارج وِفْ إيده شنطة.

ـ هدومه، يمكن يبات له هناك كام يوم.

ـ بالسلامة.

لا تجيب، تكتفي بإيماءة..

يزفُرُ براحةٍ متحدثًا عني:

ـ الواد عدُّولة، مش عارف كاشِشْ مني ليه؟

لا إجابة لديها أيضًا، تصمُت..

ـ أنا جايبلُه معايا حاجة كده ويا رب تفرَّحه.

يبدو أن هذه «الحاجة» ملفوفة بورق سيلوفان، أسمع صوت خشخشة السيلوفان وهو يُفَضُّ من حولها، وأمي بفرحة:

ـ الله! حلوة قوي! بس أدِّيهاله ازاي، حسَّان هياخُد باله، لا يا خويا خلِّيها معاك لحدّ ما ييجي وقتها.

يصمتان من جديد، ويبدو أنه تجرَّأ عليها بفعلٍ خفيف، تزجره بدلال:

ـ لأ. لأ. مش وقته، مستعجل كده ليه!

وتحوِّل بصرَهُ إلى الهديَّة التي أحضرها:

ـ دي باين عليها غالية.

وهو بدهشةٍ:

ـ غالية إيه! دا ابني..

تُرِبّتُ على ذراعه:

ـ تعيش وتجيب يا بو عادل..

ـ مش آن الأوان..

ـ أعمل إيه! الراجل يا خويا صحته زَيّ الحديد ومش عايز يموت.

ـ أنا هَشُوف له حل، والبركة فيكي.

لا تعلِّق، ويتودَّد هو:

ـ إيه! هنكمِّلوا كلامنا هنا..

يقصد أن يدخلا إلى الفراش..

وأسمعُ دوران مفتاح غرفة نوم أبي من الداخل، وأنَّات وشهقات وتوسلاتها الكاذبة بأن يدعها الآن.. لا أقول صُدمت، لا تكفي هذه الكلمة، كل مفاصل جسدي تفكَّكت وتبلَّل سروالي مثلما كان يحدث لي في الصِّغَر..

لم أنفجر، أنقضُّ، أكسر عليهما الباب، أفعل أي شيء! وهذه أشدُّ المآخذ التي أخذتُها على نفسي فيما بعد؛ شُلِلتُ، ولا شفاعة أتشفعها لنفسي سوى ذلك!

لا أدري كم من الوقتِ لبثتُ على هذه الحال؟

وما جدوى الوقت!

كلام خائب لا معنى له، فلو حتى مجرد لحظات هي لحظات مُهلِكة وضراوتها تُغني عن أيّ طولٍ أو قِصَر..

كل ما أتذكره أنهما بعد أن فرغا مما كانا فيه شعرتُ بحركتهما من

جديدٍ في الصالة، وأنّي عاودت التلصُّص، وارَبتُ باب غرفتي دون أن ينتبها حيث كان الوغد يكمل إغلاق أزرار سُترته ثم أخرج مُشطًا وشرع في تصفيف شَعْره، وهي حافية وتستر عُرْيها بملاءَة خفيفة، من اللهوجة لم تكن الملاءة مُحْكمة على جسدها، تتحرَّك مع حركة ذراعيها، ظلَّت تنزلق حتى انكشف ظهرُها بالكامل، رؤيةُ أُمٍّ على هذا النحو شيء قاتل ولولا أن لي عمرًا لأنهى عليَّ بالسكتة القلبيَّة..

وانتبهت هي إلى نفسها، رَفعتِ الملاءة إلى أعلى ثم وارَبت شُرَاعة الباب الخارجي لأقلِّ درجة ممكنة وطفقت تتابع الحركة على الدَّرَج، ووقف هو وراءها.

ما زال الوغد به طاقة..

بأنامله يتحسَّسها بنشوة، تدفعه عنها بضيق؛ راحتِ الشهوة وما يشغلها الآن الفضيحة لو شعر أحدٌ من الجيران، النسوة منهنَّ بالذات فأغلبهُنَّ خصومٌ لها..

تستمرُّ في التحديق من الشُّرَّاعة، سُعال متقطع وصوت أقدام على السُّلَّم؛ عَمّ إمام الفطاطري الساكن في الشقة التي تعلونا مُتوجِّه إلى دُكَّانه، عيناها لا تبارحان الشرَّاعة وقلبها يكاد ينشطر، الفار هو الآخَر شرع في التوتر بعد أن شعر بحركة العَمّ إمام، يسألها بهمس عمَّا إذا كان الدَّرَجُ خاليًا أم لا؟ صوته من النوع الغليظ، لا تناسبه نبرةً الهمس؛ مسموعٌ مهما خفت، وتَكزُّ هي على أسنانها مشيحةً إليه بأن يغلق فمه ويقطع النَّفَس..

دقائق وسكتَ الحِسُّ في الخارج، تشير إليه فأفلتَ خارجًا، عيناها لا تزالان عليه إلى أن واراه الدَّرَج وعلى شقة مدام «عنايات» المواجهة لنا، اطمأنَّت، الحمد لله مرَّت سليمة كالمرَّات السابقة.. استدارت متجهةً إلى الحمَّام وكنتُ أنا على باب غرفتي؛ ارتبكت أول ما رأتني، عجزت عن أيِّ تبريرٍ أو مناورةٍ أو حتى النطق بسلاسةٍ، لَعْثمات فقط، وكلمات أحرفُها مبتورة وإن عبَّرت لا تعبّر سوى عن الوكسة التي هي فيها، وأنا أرمقُها بحسرة؛ لم أستطِع

كتمَ الدمع في عينَيَّ، انسال حارًّا على وجنتَيَّ..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١٥

لم أنطق معها بحرفٍ عمَّا وقع، لا يومَها ولا إلى الآن..

فما الذي سوف أسمعه منها!

ما فعلَتهُ ليس من جنس الأفعال التي تشفع فيها المُراضَاة أو تجبرها الأعذار والوعد بألَّا تتكرَّر مرةً ثانية، فإما الانفجار أو السُّكات الصعب، اخترت الطريق الثاني وتكوّرتُ على نفسي بلا حيلةٍ أو فهمٍ كالجنين في الرَّحِم، ولو استرجعتُ ما حدث في هذه اللحظات تطوّقُني تفاصيل بلا حصر: وجهها الذي صار كحبَّة الكُرْكُم، لسانها الشديد على مَنْ حولها وقد انعقد، شفتاها اللتان خرجتا عن السيطرة ولا تعرف إن كانتا ترتعشان أم تتهيآن للعويل؛ الإثم هو ما فعل بها هذا، حطَّ من قدْرِها أمامي وأمام نفسها إلى ما دون الحشرة التي تُداس..

أنا الآخَر كانت حالي أتعَس من حالها؛ ما شهدتُه أكبر من أن أتحمَّله، ردَّة الفعل أيضًا أكبر من أن أُقدِم عليها..

عيني وحدها التي قاتلت!

أكون جالسًا في الصالة وهي في الخارج، يدقُّ جرس الباب، أعرف أنها هي ولا أتحرك من موضعي؛ تضع ما تحمله جانبًا وتستخدم المفتاح، فيما قبلُ كانت تنهرني لو توانيتُ عن المساعدة، زال النهرُ من قائمتها، لم تعُد تتجاسر عليه، تلهثُ وربما تئنُّ ممَّا في يديها عسى تلقى مُؤازَرة أو كلمة مني، لا أنطق، رأسي منكفئ على ما بيدي أو مشدود إلى شاشة التلفاز..

كلامٌ كثيرٌ يخرج منها، كلُّه وُدٌّ وبنبرةٍ حلوة؛ أرمقُها بنظرةٍ صارمةٍ وأحيانًا شَرِسة، يتوقف الكلام في حلقها وينخفض جفناها أو تذهب بعيدًا بعينيها، وإذا طال بقاؤها معي بالصالة لم تكُن تكفُّ عن اختلاس النظر إليَّ، اختلاساتها حَنُونة، متوسِّلة، كما لو أن بها رائحة بكاء، أنا بَشَر وهي أمي؛ أضعفُ وتتحرك نفسي، لكن سَرْعان

ما كنتُ أردع هذا الذي تحرَّك وبقصدٍ مني أزيد من التجهُّم الذي يعلو وجهي.. هي لا تشعر بأني أُصارِعُ نفسي وأنا لا أدري إن كانت تتألمُ فعلًا ممَّا فعلتْ، أم دموع تماسيح أتعاملُ معها..

ومرتين أو ثلاثًا تتبَّعتُها في الشوارع التي تمشي فيها، تصرُّف أهْوَج، النَّزَق والطيش هما مصدرُه، هي على طُوَار وأنا وراءها بعدَّة خطوات على الطُّوَار المقابل، خطوُها خطو عجوزٍ مهمومة؛ لم تعُد تتثنَّى أو تلوك لُبانةً أو تتعاجب بجسدها، انكسرتْ، انكشف سِتْرُها، تعرَّت أمام أقرب الناس إليها، ابنها، ومن فرط ارتباكها وعدم التوازن الذي حلَّ بها تظلُّ تتلفَّت وراءها، تلمحني وأنا أرمُقُها من الخلف مؤكِّدًا وجودي، ثم يضيعُ أحدُنا من الآخَر في زحام الشارع..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تلقَّفتني دوَّامة أخرى..

الحديث الذي دار بينها وبين الفار قبل أن تهمَّ به ويهمَّ بها، قول هذا الوغد بأني ابنه وتأكيدها ذلك، فإذا كان الإثم الذي ارتكبته كالنهش بمخلب، فهذا الذي سمعته طحنٌ بأضراس لبؤةٍ معدومة الضمير..

أنا من صُلب هذا الدَّاعِر؟!

كيف!

وأين؟ هنا على سرير أبي حسَّان! جعلتماني ابنَ زِنى يا سَفَلة، يا للنكبة! العلاقة الآثمة هذه مستمرَّة منذ خمس عشرة سنة، جنيتما عليَّ أنا وأبي ولا تزالان..

وناوشَتْنِي رغبة شديدة في أن أرى هذا النَّهَّاش، ليس لأنه الأب البيولوچي وأودُّ التعرُّف إليه بمنظارِ النسبِ والدم، حاشا لله هو عارٌ وخَصْمٌ، الرغبة رغبة مظلوم لا دواء له سوى الانتقام، أردتُ أن أتأمَّله تأمل المترصِّدين أصحاب التدابير والنيات المبيتة، أتفحَّصُه من رأسه حتى قدميه، أطلع على مكامنه مثلما تفعل الضواري مع طرائدها!

ورأيتُه..

كان واقفًا يتسامرُ مع أحد المارَّة، وأنا أخرجُ من الباب العمومي للبيت..

باغتتني رؤيته رغم أني كنتُ أسعى إليها..

أربكتني أيضًا..

ووقفتُ دقيقةً دون حركة، تسمَّرتُ تقريبًا، لمحني هو الآخَر بطرف عينه وارتبك مثلما ارتبكتُ، فأكيد أبلغتهُ أمي بأني عرفتُ، لم يُرِني وجهه، تحاشاني مدَّعيًا الانشغال مع مَن يتحدث، فكَّرت في أن أبصق عليه، وما جدوى البصق! عملٍ عشوائي لا يضرُّ الكلابَ في شيء، وقد يصل الخبر إلى أبي حسَّان ويعرف السبب، خزَّنتُ له في قلبي مع الخزين الذي أخزِّنه لأمي..

وأسئلة تملأ رأسي، أسئلة مؤذية إجاباتُها أشبه بزحزحة أحجار ترقد أسفلها عقارب وعناكب سامَّة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ورجع أبي من البلدة بعد أربعة أيام..

رجعَ مزهُوًّا بنفسه بعد أن جمع للعَمِّ أناسًا أجبروه على دفع مائةِ جنيهٍ أخرى فوق الخمسين المتبقية له، ظنَّ أنه انتصر بعد النكسة التي انتكسها رغم أن كل ما تحصَّل عليه، وبالكاد، يوازي نصف الثمن الحقيقي للقراريط العشرة.

يومان وهو في هذا الزَّهو ويحكي لزملائه في قسم العرب عمَّا فعل بمشواره في البلدة، والسَّوَاد الذي اعترى وجهَ أخيهِ الشناوي طوال الجلسة التي عقدها الناس لفَضِّ هذا الإشكال.

يحكي وعيناهُ تتابعان ما يدور على وجوههم، يتوقَّع هزَّةَ رأسٍ بإعجاب، كلمة ثناء، همهمة إشادة؛ هؤلاء الذين يستمعون إليه عساكر مُحنَّكون وأغلبهم من أصول ريفيَّة، ثقافتهم واسعة في الساقية والنَّوْرج والمحراث، وعلى علمٍ أكيدٍ بأسعار القراريط سواء منها التي على تُرْعة وتأتيها المياه بالراحة أو الأرض المدفوسة في

الداخل، والأرض العَفيَّة من الأرض الشَّرَاقي والتي على وشك الدخول في كردون المباني أو التي من المستحيل، غير أنهم كانوا يحبونه فضلًا عن أنهم يُشفقون عليه، لا يريدون كسرَ خاطرِه، يستمعون وبالكذب يومئون برؤوسهم بأنهم يصدِّقون وفخورون به، ومع هذا لم تكن تخلو هذه الجلسات من عسكري لئيم من خِصَاله السخرية المستترة، يبالغ في التفاعُل مع أبي ليأتي بأقصى ما عنده ويتسلَّى الجالسون:

ـ بس يا شاويش حسان دا انت على كده تبقى افتريت على اخوك، شوية رحمة!

والغلبان أبي:

ـ رحمة إيه يا شاويش سعد! الأشكال اللي زَيِّ الشناوي عايزه واحد زَيّ حالاتي يوقِّفها عند حدَّها.

ويضعُ ساقًا على ساقٍ، مُشيحًا بيده:

ـ قال رحمة قال!

لم يرحمنا أيضًا في البيت، سمعنا منه هذا الكلام ست أو سبع مرَّات، أمي صامتة، ملخومة في مصيبتها، أنا الذي كنتُ مندمجًا معه وأسألُه كيف تغلَّب على هذا العَمّ؟!

وهو بعد ابتسامةٍ لطيفة:

ـ اطمِّن اطمِّن، أبوك جدر ويفوت ف الحديد.

مسكين! ظنَّ أنه حقَّق نجاحاتٍ وأصبح خطيرًا..

وأخرج لنا المائة والخمسين جنيهًا من حافظة نقوده، المتوقَّع أن يسلمِها لأمي أو تسبقه هي وتخطفها من يده كعادتها، لا هو ولا هي فَعلَا ذلك.

قال إنه سيُودعُها في البوستة بدفتر توفير باسمي، استبقى فقط عشرة جنيهات يبتاعُ بها حذاءً لنفسه، وعندما سأل أمي إذا كانت

في حاجةٍ إلى شيءٍ ما هي الأخرى، تأنَّت، رمقتني أولًا ثم اعتذرت بأنها ولله الحمد لا ينقصُها أي شيء!

يومٌ والثاني ولاحظَ ما بيني وبينها من وجوم:

ـ مالكُمْ، إنتوا زعلانين من بعض ولَّا إيه؟

لا نجيبُ، فيُعاود:

ـ هو جرى حاجة!

اكتفينا بقول: الحمد لله..

ولم يَكُن في مقدوري سوى الرثاء له فوق رثائي لحالي، أمَّا أمي فقد خشيَتْ أن تنتابُني لحظاتُ ضعفٍ وأقولُ له، وكان هذا هو السبب المباشر لقتل أبي.

نعم قتَلَتْهُ..

لن أصدِّق غير ذلك مهما قيلَ بأنه مات ميتةً طبيعيةً، وسُجِّل هذا في دفاتر الحكومة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١٦

شهران ومات أبي، ظلَّ يُحْتضَر إلى أن فارَقَ الحياة..

شكا من آلام في معدته وسخونة مع إسهال، ثم يتحسَّن عدَّة أيام ليُعاوده المرض من جديد؛ ذهبنا به إلى المستشفى الأميري ولا فائدة، نعود بمُسكِّنات وبراشيم هي والعدم سواء، أقصى ما في مقدورنا بعد ذلك المستوصفات الملحقة بالجوامع والحال هي الحال.

كان بصحة وإذا أطلق لنفسه العَنان يُنهي في إفطاره على ثلاثة أرغفة وطَبَق غويط من الفول غير الإضافات، ولم يتجاوز بعدُ سِنَّ الخمسين، مؤهلاته ليست مؤهلات العجائز الذين يرقدون في الفِراش ويوم والثاني يموتون، كما جاءنا فرحان من البلدة، جسده كله منه ما يضحك ومنه ما يبتسم، حتى نبرة صوته أصبحت تعلو وتنخفض وتلينُ وتشتدُّ حسب مقتضى الحال لا خافتة ضَجِرة مثل الأول، وليس كل هذا بسبب المائة والخمسين جنيهًا التي أجبر عمِّي على تقيُّؤها؛ لأنه استردَّ حقَّه، صحيح لا يزال حقُّه منقوصًا إلَّا أن ثقته بنفسه ازدادت وعدلت له الكفَّة، فللمرة الأولى ـ وحسبما ظنَّ ـ لا يبيتُ مغلوبًا، وأنه كسائر الناس له لسانٌ وإرادة، فطالما عاش عيشة الدَّجَاج في بيته ومحلِّ عمله وفي الشارع وأينما حلَّ!

لم يَقُل لنا هذا، أفعاله هي التي قالت..

أصبح يزوم، ومرَّة من المرَّات انفجر في وجه أمي لأنها تكاسَلت عن إعداد القهوة له، بإشاحةٍ خفيفةٍ من يدها وعيناها لا تزالان على شاشة التلفاز قالت له: المطبخ عندك وبه الكنكة والبُنّ والنار، «اتلحلح» واعملها لنفسك!

ما إن أكملت عبارتها حتى اتسعَتْ حَدَقَتا عينيه وذراعه منفعلةٌ معه وتهدِّد، هاج فيها هيجةً شَرِسة، وأنا مدهوشٌ فلم أتخيَّل أبدًا أنه قادر على الانتفاض على هذَا النحو، ولا إخراج كل هذا الكلام الفالت من حنجرته المسالمة، ردَّة فعله كان مبالَغًا فيها وإن وَشَتْ لا تشي

سوى بظلامات في نفسه حيالها..

والحقُّ أني تعاطفتُ معها فالتعاطف حِسٌّ إنسانيٌّ يأتينا أو يتكوَّن فينا من تلقاءِ ذاته ودون استدعاءٍ أو إذنٍ منَّا، المهم أن تعاطفي هذا لم يدُمْ طويلًا، الدقائق التي حدث فيها هذا المشهد فقط، واستمرَّ هو في تتبُّعها والتلويح باللين مرَّةً وبالشدة مرَّاتٍ كلما تجاوزته، وأنا دهشتي تزداد بتتابُع هذه المرات؛ فأين كانت هذه الشدَّة ممَّا كان فيه من قبل؟! وهل يمكن أن يصبح الإنسانُ مزدوجًا بين يومٍ وليلةٍ إلى هذا الحد؟ هل الثقة بالنفس تقتل الطِّيبة وتُنعش الغِلْظَة في النفوس؟ أم في الأمر شيءٌ آخَر يُخفيه عنَّا مثلما أُخفي عنه أنا الآخَر فعلة أمي!

ما علينا..

بعد انفعالاته هذه وبالذات عند تكاسُلها في إعداد القهوة ارتبكت وكشَّت منه، وبسقم طويَّتها أوَّلت ما طرأ عليه للمعنى الذي في رأسها وليس لأنه استردَّ بعضًا من كرامته المفقودة، تشكَّكت فقط في أني قد أكون لمَّحْتُ له بشيءٍ، هذا ما استنتجتُه من الرمقة الغامضة التي رمقتني بها، ثم سايَرتْ أبي بوجهٍ يخلو من أيِّ اعتراض:

ـ طيب. طيب. هو جرى إيه!

وبابتسامةٍ غصبت نفسها عليها:

ـ عنيَّه هاعمِلَّك القهوة حالًا.

وليس في ظنِّي سوى أنها تدبِّر لأمرٍ ما..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يهنأ أبي بالتبدُّل الذي طرأ عليه..

داهمه المرضُ الذي أشرتُ إليه قبل قليل، وقبعَ لنا في البيت، لَزم الفِراش، ضمرت أعضاؤه إلى النصف تقريبًا، عنقه، كتفاه، وكل ما هو مكشوفٌ من الثوب الذي يرتديه، ذراعاه بالذات أصبحتا في وضع

بائسٍ؛ راح الزِّند والعَضَل والرُّسْغ المتين، صارت جِلْدًا على عظمٍ وعروقًا في عروق، ليست لآدمي أبدًا إلَّا إذا جاء التأكيد من العاملين في مجال التشريح! لُهاثُه أيضًا لم يكن ينقطع رغم ما فيه من سكونٍ وقِلَّة حركة.

وعافَ الطعامَ إلا كسرة خبز أو ثمرة تَمْر وبعد محايلة مني وأحيانًا أمي، فكل ما يصل إلى جوفه يصيبه بالتقيُّؤ والإسهال.. كان يموت بالبطيء، والحمَّام ذَهَاب وإياب دون انقطاع، يخبُّ في منامته التي أصبحت تَسعُهُ وتَسَعُ بني آدم آخَر معه، ذراعه اليُسرى تستندُ إلى كتفي أو كتف أمي وبكفِّه اليُمنى يتَّكئُ على عصا، ليست لدينا عِصيٌّ في البيت، العصا مقشَّة بيدٍ من الخشب نزعنا عنها خيوط اللِّيف التي بأسفلها.

رؤيته على هذه الحال كانت تُؤلمنُي وتُصيبني بالسُّخْط على هذه الدنيا التي هذه نهايتها، المرض الشديد ـ فعلًا ـ مخلوق ظالم وله جبروت وقدرة على الفتك، ظلَّ يركلُ أبي حتى أودى به.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وجاءنا العمُّ ومعه العَمَّة..

العمة متأثرة لحال أبي؛ الأخت الكبرى التي شاركته طفولته وصِبَاه، جلست على حافة السرير وأكثر من مرَّة تتأمل وجهه وتسرح بعينيها أو تربِّت بباطن كفِّها عليه، والعمُّ على مقعدٍ مقابل وبصوته الخالي من أيِّ تعبير:

ـ ألف سلامة يا حسَّان، لا بأس يا خويا.

وبنبرةٍ كالنُّباح:

ـ يا ساتر يا رب، إيه اللي جرى! ما انْتَ كُتّ عندنا من قريب وماشي أربعة وعشرين قيراط.

واستأذن منَّا في الذهاب إلى الحمَّام ليتوضَّأ، والعمة تقول لأبي بعد أن غارَ:

ـ البلد كلها زعلانة عليك ومحمِّلاني السلام، الحاج فلان والحاج فلان والست...

وتعدُّ على أصابعها ذاكرةً أسماءَهم..

يبتسم أبي..

ـ ويا وِلْداه إلا فاطمة مرات أخوك، انكفت على وِشَّها لما سمعت باللي جَرَالك!

وبصوتٍ أخفَض وهي تدنو منه:

ـ والحمد لله إن الشناوي مَا كَانْش حاضر ساعتها..

تُفلت دمعة من عينه، ويضغط على يدِ العمة قائلًا:

ـ سلِّميلي عليها..

ويتأنَّى لحظةً:

ـ ومش بخير الحمد لله؟

ـ آه يا خويا بخير، خلِّيك انت ف اللي انت فيه.

يعود العَمُّ بعد أن توضَّأ وفرشنا له في الصالة ليصلِّي فريضة الظهر وركعتَي السُّنَّة..

يقول لأبي بنبرةٍ كالاعتذارِ بأنه في حاجةٍ إلى تسجيلِ عقدِ الأرض التي اشتراها منه، مبرِّرًا بأنه لا يستطيع تَسلُّم حصةِ الأرض من الكيماوي والمبيدات الحشريَّة من الجمعيَّة الزراعيَّة إلا إذا كانت باسم المالك، وأنه لولا هذا ما تجرَّأ وطلب هذا الأمر، والعمَّة بضيق:

ـ هَيرُوح ازاي وهو فِ الحالة دي، مَا انْتش شايف بعينك!

وأبي باستسلام:

ـ حقُّه يا ختي حقه..

بعد عدَّة اعتراضات من العمَّة، سلَّمت قائلةً:

ـ بس تجيب عربيَّة مخصوص تاخده من قُدَّام البيت وترجَّعُه تاني.

ـ طبعًا يا ختي طبعًا، العربية هتاخدُه من هنا لحَدّ الشهر العقاري، ومش هينزل منها، هبَرْطَل الناس اللي هناك وأخلِّيهم يجيبوا له الورق والدفاتر لحدّ عنده فِ العربية، وهيَّه برضه اللي هترجَّعه لحدِّ هنا.

وأمي تقول لأبي:

ـ آجي معاك؟

ـ تروحي فين، دا مشوار ما يعلم بيه إلَّا ربِّنا.

ولمَّا طلبت أنا نفس الطلب ابتسم..

جاءنا العمُّ في اليوم المتفق عليه، أخذه من أمام البيت في عربة أجرة بورسعيد، ليعود إلينا أبي آخِر النهار منتهيًا، عرفنا منه أن عربة الأجرة أوصلته إلى موقف الباصات المتاخم لمسجد العبَّاسي، وأنه سافَر مع أخيه بالمواصلات العامة وفي العودة رجع وحده.

أتاه أمرُ الله بعد هذا المشوار بأقلِّ من أسبوع..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١٧

أمثالي في الحياة لا حظ لهم ولا سند..

فجهارًا نهارًا وَأَدتْنِي في دوَّامات لا ذنب لي فيها، حياتي الأولى كانت مُرَّة غيرَ أن وجود أبي لطَّف منها، كالليمونة حامضة المذاق التي بالماء والقليل من السكر تغدو شرابًا مُستساغًا، كان أبي هو هذا الماء وهذا الطعم الحُلْو..

حياتي الثانية بدأت برحيله عن البيت وانتهت بقفص المحكمة وانتظار العقاب، فأبي رغم هشاشته وقِلَّة حيلته كان فارقًا في حياتي؛ لم يَكُن مجرد أب بل أكبر من ذلك، وحتى بعد ما عرفتُه عن أصلِي وفصلي تضاعَفَ لديَّ هذا الإحساس، وازداد تصميمي على أني قطعة من هذا الرجل المخدوع، وبقدرِ إيغالي في حبِّه أوغلتُ في كُرْه هذا الذي يسمُّونه الأبَ البيولوچي؛ رؤيتُه تثير فيَّ الغثَيَان ويغلي الدمُ في عروقي، لا أظنُّ أن أحدًا في هذه الدنيا كَرِه هذا الرجل مثلي؛ سلبني كرامتي وعِزَّة نفسي، هو وأمي سبب شقائي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خروج جثمان أبي على ظَهْرِ محفَّةٍ لم يكُن سهلًا عليَّ..

أمي الست وداد المناخلي بَكتهُ بحُرقة، بنبرةٍ مبحوحةٍ تفانت في تجويدها، غير تصرفات خشِنة كلَطْمِ خدَّيْها وشَقّ ثوبها من أعلى، كانت ماهرةً في النُّواح وكل حواشيه الأنثويَّة، أدَّتها بامتياز! كانت ماهرةً في كل شيء! بدلالها في الشارع وتَثنِّيها في مشيتها تلعب بأعين الذكور، وفي العِراك تُخرس نسوة العمارة وتُدخلهنَّ الجُحُور، وفي النَّكَد يُسأل أبي؛ حطَّمته، والآن ساعة تجهيز جثمانه كلُّ مَنْ كان موجودًا أشفق عليها، وبينه وبين نفسه أثنى على هذه الثَّكْلَى وحسرتها على زوجها!

عمتي نفيسة أيضًا فقدت توازنها؛ أطالت في النحيب حتى تهدَّلت

صفحة وجهها، خلَتْ تمامًا من الوداعة التي ألِفتُها فيها، والعمٌّ الشناوي بقلبه الأبكم ومسبحته الملفوفة حول رسغه، والسلكاوي بطاقيته البيضاء؛ كُلٌّ تأثر لحظتها ثم رجع إلى بيته وتعشَّى ونام، أمي مثلًا بعد أن انصرف المُعزُّون التهمت رغيفين وعُلْبة سردين، ثم شاهَدتْ حلقةً من حلقات مسلسل «هارب من الأيام» التي كانت تُعرض على شاشة التلفاز في ذلك الوقت، وأنا من تَوَهَان الصدمة كالدجاجة التي أطاحت السّكِّين برقبتها وتفرفر وتصفِّي دماءَها..

هزمتني الدنيا من بعده..

وبقيتُ أنا وأمي وحدنا في الشقة، أنا في كآبةٍ والقلبُ يغرفُ من الهَمّ ويلوكُ، وهي تتجهَّزُ لدنياها الجديدة التي خطَّطت وفازت بها؛ عداوتي لها تزدادُ يومًا بعد الآخَر، بيدَ أنها عداوة بلا تحرُّشات أو لسانٍ يُلمِّح، ضعفت بموت أبي وهي بالعقل والمنطق تؤهِّلني للمسارِ الذي حدَّدته.

ونَخْرَبَ الفارُ حتى وصل إلينا..

صعد إلى شقتنا بعد شهرين من الوفاة، كان مُستحيًا، يُقدم رِجْلًا ويؤخر الثانية، اعتصمتُ بغرفتي رافضًا لقاءَه وأمي تُحايلني، فَجأةً انفعلت وجرَّتني من يدي لأسلِّم عليه، لم يمكث سوى عشرين دقيقةً لم أنطق معه فيها بكلمة أو رأيتُ وجهه بوضوح، طوال الوقت وعيناي تتحاشيانه وكل إجاباتي على أسئلته مجرد همهمات.

تكرَّرت زياراته بعد ذلك وطال أمَدُ كلِّ زيارة، وانتعش البيت، فبعد أن كنَّا في جفافٍ طوال هذين الشهرين وشهرٍ ثالثٍ بعدهما للبطءِ في إجراءاتِ المعاشِ ولنفادِ نقودِ بيعِ الأرضِ لسداد نفقات تجهيز أبي لرحلته الأخيرة، بعد ذلك جاءتنا المَعونة؛ أُرْز، لحم، عَدَس، غير أوراق مالية من ذوات الجنيهات العشرة ملأت كيس أمي أو أخفتها في دولابها، ناهيك عن جهاز تلفاز جديد ماركة فيليبس، أشهر ماركة في ذلك الوقت، والمصدر طبعًا معروف..

حرَّمتُ على نفسي الطعام الذي يأتي من عند هذا الإنسان، وأمي

نصيحة في مُحايلَة في زَغْدَة في كتفي ثم أصبحت لا تبالي، ربما قالت في نفسها: الجوع حتمًا سوف يؤدبني وآكلُ ممَّا تأكل، لا العيش الحاف الذي كنتُ أبتاعه من الشارع!

كان حَدْسُها صحيحًا، الجوع فعلًا كافر، فخلسةً صرتُ آكل من طعام الفار، وهي تفهم وتبارك، وفي الخفاء مددتُ يدي على نقودها، أقصد النقود التي يتعطَّفُ علينا بها هذا الجُرْذ! أبحث عنها في حقيبتها أو بين طيَّات ملابسها حيث تخفيها، أول مبلغ اصطدتُه ورقة بخمسة جنيهات، ارتبكتُ فقط وأنا أفعل ذلك غير أني لم أُلُمْ نفسي، فأنا لستُ لصًّا ولم أكُنْ أسرق، نحنُ في حربٍ وما أفعلُه عملٌ مشروعٌ في الحروب؛ اقتناصُ غنائم من الأعداء!

ولم أتوقف..

كل ما أجده أمامي ألتقطه في ثوانٍ مثلما يفعل النشَّالون في الباصات؛ عشرة جنيهات أو خمسة أو حتى ورقة بخمسةٍ وعشرين قرشًا، وكان هذا أول إرهاصات الثأر والانتقام، شيءٌ شبيهٌ بإحداثِ خدوشٍ في الخَصْم الذي أمامك..

وإن كان هذا لم يكن يؤثر في أمي؛ فصنبور الفار يتدفَّق بالمال عليها كل يوم، وهي في إحدى حالين: إمَّا أنها لا تشعر بما أفعل، وإمَّا أنها تغضُّ الطرف فأنا في الأول والآخِر ابنُها..

هي حُرَّة، تشعرُ أو لا تشعرُ هذا شيءٌ يخصُّها! لكن اللطيف في الأمر أني كنتُ أحسُّ بالسعادة وأتخيَّل وجهها الغاضب عندما تلاحظ نقصان فلوسها، غاراتي على حقيبتها ودولابها كانت ممتعةً؛ تشفي ولو ملِّيمترات من الجراح التي في قلبي!

وحلا في عينَي طريق «العَوَج»..

أولًا هجرتُ المدرسة ثانيًا لم أعُد أُطيق البيت؛ صار الشارع محلَّ إقامتي، أبيتُ فيه على أيِّ رصيف، بحذاء أي جامع، وكَمْ من ليالٍ تمدَّدْتُ فيها على حشيش حديقة «فريال» أو تحت باكيةٍ من البواكي كالمشرَّدين!

وذَهاب وإياب إلى مَخافِر البوليس؛ الإفرنج والعرب والمناخ، على الفور كانوا يُطلقون سراحي، القانون في صفِّي فما أزال في عِدَاد الأحداث والتعامل مع أمثالي يكون برفق، يرسلون في طلب أمي لتتسلَّمني بعد التوقيع على تعهُّد بأن تُحسِن رعايتي، تقبض على يدي بشدَّة ـ تكاد تعصرها ـ ونحن خارجان من أيِّ مخفَرٍ من هذه المخافرِ، ووعظ وإرشاد ومُسايسَة..

أتعظين الآن! عظِي نفسَك قبل أن تعظِينِي..

أستخفُّ بكل ما تقول، لا تنطلي عليَّ هذه الحركات وهذه الشَّحْتفَة، ألعبُ عليها أنا الآخَر وأُبدي اعتذاري وندمي، وليس هذا هو غرضي الحقيقي، فلا ندم ولا كلام فارغ! بالمسكنة التي أتفنَّن في رسمها على وجهي أحثُّها على أن تهدأ وتُخفِّف من قبضتها التي تحيط بمعصمي، وما إن تفعل حتى أفلتُ من يدها وأطير!

وأصبحتُ شَوَارِعيًّا بجدارة، غير أني لم أكُنْ لصًّا بالمعنى الحقيقي للسرقة، ما أفعله كان شُغْل عيال، أُغافل مَن يقفون على باب أي سينما مثلًا وأتسلَّل دون تذكرة، أو إلى أي مطعم؛ مطاعم الفول والفلافل وسائر أخواتهما، المطاعم المسكينة التي في الأزِقَّة الخلفيَّة، لا يشتبهون فيَّ فأغلب زبائنهم من صنفي، وآكل براحة راحتي وساعة الحساب عدَّة ركلات أو صفعات تهبط على وجهي.. كان من أصحاب هذه المطاعم أناسٌ طيبون، يعفون أو أذاهم قليل يكتفون بالشتائمِ وسَبِّ الدين لي ولأهلي! لم أكُنْ أبالي بالشتائم التي تخصُّ أمي، شتمة الأب هي التي كانت تؤلمني..

ظللتُ على هذا النحوِ سنةً وأشهُرًا، طرزان يهيم في الشوارع وإذا أعادوني إلى البيت هَما يومان وفي الثالث أطفَش، إلى أن اشتدَّ قصف الملعونة إسرائيل على بورسعيد وشرعُوا في تهجيرِ أهْلِها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١٨

ورحلتُ عن بورسعيد، هكذا فجأةً ودون تخطيط..

إذ كنتُ شاطحًا في الشوارع كالعادة، وعند تقاطع التلاتيني وصلاح سالم ألحظُ حركةً غير عادية ورتلًا من الباصات الكبيرة؛ اقتربتُ لأجد كُلًّا منها على واجهته الزجاجية وفي الأجناب مُلصَق مُدوَّن به البلدة المتوجه إليها؛ بلقاس، المحلَّة، رشيد، شبرا الخيمة، دمياط... ومن هنا ـ حيث أقف ـ وحتى ميدان المنشية الدنيا في حالة طوارئ؛ زِحام وجَلَبة وصِبيَة وأولاد صغار، منهم الملتصق بأمه وأبيه، ومنهم مَن يحسب أنهم في طريقهم إلى نزهة وليسوا مُهجَّرين إلى ملاجئ وعنابر ودُورٍ أشبه بأماكن الاحتجاز، وعجائز يتَّكئُون على عكاكيز أو أكتاف أولادهم، وعربات بوليس وإسعاف لو لا قدَّر الله!

والناس كلهم، صغيرهم وكبيرهم أو حتى الشيخ الفاني ليسوا في حالةِ ارتباكٍ فقط، هذا أقلُّ ما يُقال..

مأزومين محسورين وليس من شفاه تبتسم، فالغمُّ والنكَدُ هما عنوان اللحظة، ومَن يصعد منهم سلالم الباص يفعلُ ذلك في صعوبة، الأقدامُ لا تطاوع، ومَنْ لا يكملُ يقفُ على أول أو ثاني سُلَّمة ويعود برأسه إلى الوراء وكأنها نظرةُ وداع، ومَنْ هم وراءه لا يتعجَّلونه؛ يفعلون ما يفعلُ، ونظرةٌ إلى الدنيا التي فاتوها، وتتوقف الحركةُ بضع دقائق على أبواب الباصات، لا هم يصعدون ولا هم يرجعون من حيث أتوا؛ حيارَى، حالهم حال مَنْ لا يجيد السباحة ويتردد في إلقاء نفسه في الماء رغم أنه السبيل الوحيد للنجاة!

كانت بورسعيد غالية عليهم، هي شوارعهم وبيوتهم وأمهم وأباهم، النسوةُ بالذات أكثرُهُنَّ يدمعن والقويةُ منهنَّ مهما تماسكت أول ما تصعد ومع أول دورة لعجلات الباص تكادُ تنهار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تجذبُني صيحةُ البوقِ الصادرةُ عن باص دمياط..

اكتمل وأدار السائق المُحرّك ويحثّ الناس على إخلاء نهر الشارع كي يتحرَّك، وأنا وهكذا ـ والله ـ ودونَ تفكيرٍ أتعلَّق بمقبض الباب الخلفي، جرجرني الملعونُ وراءه عدَّةَ خطواتٍ غير أنِّي في النهاية صعدتُ وانطلقتُ معهم.

لا أماكن للجلوس، ولا أحد يطلب ممَّن معه أن ينكمشوا قليلًا فوق المقاعد ويُجلسوني إلى جوارهم؛ أنساهم الكربُ الذي هم فيه اللُّطف والشهامة..

ليس مُهمًّا! فكثيرًا ما تعوَّدتُ على النومِ في الشوارع، تكوَّرتُ وجلستُ بين الأقدامِ كما لو أني سحليَّةٌ أو جُرْذٌ، وأول ما وصلنا دمياط توقَّف الباصُ أمام مقهى اسمُه «مقهى الغزولي» وأفْرَغنَا من بطنه، وكُلٌّ إلى حال سبيله بحقائبه وأولاده ونقود قليلة تكفيه أيَّامَه الأولى هنا إلى أن تتحسَّن الحال وتصرف لهم الحكومةُ الإعاناتِ الشهرية، أنا الهلفوت الوحيد في هذه المجموعة؛ ثيابي رَثَّة والشبشب أبو إصبع الذي في قدمي مخروم وكل ما في جيوبي أربعة قروش! لكن بحنكتي ودرايتي بأصول اللَّفِّ في الشوارع تصرَّفتُ ووصلتُ إلى بلدةِ أبي، والآن ماذا أفعل؟

أأذهبُ إلى بيت العمِّ، وأولاده اللُّطفاء النبوي وزغلول!

عبستُ على الفور في وجه هذا الخاطر المرعب، وطفقتُ أسألُ وأسأل حتى وصلتُ إلى بيت العمة نفيسة، غير أني لم أبقَ معها أو في البلدة كلها سوى ثلاثة أسابيع.

العَمَّة ست طيبة، أكل وشرب وهدوم جديدة كما أنها حَنُونٌ مع شيءٍ من لؤمِ نسوةِ الأرياف، غير أن الإقامةَ معها ليست مُشجِّعة!

زوجُها لا حلَّ له! مُمِلٌّ، مُتْعِب، وأستاذ في الخَرَف أو هذا الذي يسمُّونه الزَّهايمَر؛ أول يوم جئتُ فيه تأمَّل وجهي وسألني: مَنْ أنت؟ وعمتي تشرح له وهو تائهٌ بعينيه وخارجٌ عن الدنيا تقريبًا! في اليوم الثاني بل والثالث عاوَد السؤالَ نفسَه وهي هي الإجابات، كل هذا يمكن تحمُّله المشكلة أنه مع خَرَفِه هذا كان لئيمًا! استغلَّ

وجودي لصالحه، نصَّبني خادمًا له؛ أحُكُّ له ظهره، أقعد تحت رجليه، أسحبُه من مطرحٍ إلى آخَر، حتى الحمَّام يريدني أن أدخل معه مثلما تفعل زوجتهُ وأساعده في إتمام مهمته! جريتُ من أمامه وفي سِرّي لعنتُ خاشَـه وخاشَ أهله!

ابنُه بهدلني هو الآخَر..

كان سمينًا ويكبُرُني بمراحل، عمره ثلاثون سنةً وكسور تقريبًا، وعبيط، عقله عقل دجاجة أو عُصْفُور، كرَّهني في حياتي، عَضٌّ ورَفْس ويصمِّم هذا الأبله على أن أمشي على أربعٍ وهو بالمثل، وأن نُمأمِئَ ونتناطحَ كما الخِرَاف!

العمة طيبة مثلما قلت وأنا لحمُها ودمُها حسبما تظن، لكن ماذا تفعل؟

المعاش قليل، الحكاية كلها خمسة أو ستة قراريط وشراكة في رُبْع دُكَّان، كما أنها تخشى أن أفطَس بين يدَيْ زوجها وولدها، ناهيك عن أن تركي لأُمِّي ورغبتي في الإقامة عندها أثارا ريبتها؛ انفردت بي لعلَّها تفهم:

ـ ماتقولّي الصراحة، إيه حكايتك؟

ـ ولا حاجة يا عمة، أنا جيت أشوفكم وأزور تُرْبة بابا.

تزُمُّ عينيها مُتشكِّكةً:

ـ بس كده..

أسكتُ.

ـ وعلى كده ناوي ترجع لوالدتك ولَّا مش ناوي؟

ـ لو عايزاني أقعد معاكم، يا ريت..

يزداد تَشكُّكها..

وقد عرفتُ فيما بعد أنها شاوَرَتِ العَمَّ في أمري، اقترحَتْ عليه أن

أبقى معهم في البلدة لكن ليس في بيتها، في بيته هو؛ فهو العَصَب، العمّ الواجب عليه الصرف والرعاية، وحبَّذا لو ألحقني بالمدرسة الإعدادية بالبلدة التي بجوارنا، وهو يهزأ بهذا الكلام الفارغ الذي تقوله؛ خصوصًا حكاية المدرسة هذه التي تقترحُها!

وهي تهاوده:

ـ طَبْ شُوفْلُه أي شغلانة؟

ـ ييجي يسرَح بالجاموسة!

ففعلًا لم يكن العَمُّ يميل إلى أبي أو أيِّ أحد من رائحته، هناك أشياءُ في نفسه، لعلَّها، لا ليس لعلها! أكيد سببُها علاقة الحب القديمة التي كانت بين أبي وبين السّيّتّ فاطمة!

والآن ليس أمامي إلَّا أحد خيارين؛ إما أن أبقى في «المورستان» مع فريق العمَّة أو أسرح بالبهائم في بيت العم، طبعًا رفضت، قلتُ: لا، سوف أرجع لأمي، وقبل أن أدَعَ البلدة وأغادرَ اصطحبتني العمة لزيارة قبر أبي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المقابر بعيدة عن البلدة..

مشوار حتى وصلنا، والعمَّة تسبقني بخطوةٍ بين صفوفِ الموتى، عيناي تتابعان أصابعها التي تشير إلى المثوى الذي يسكن به جثمان أبي..

لا شَاهِد من الرُّخام بأعلاه أو حتى إشارة، مجرد قوالب من الطوبِ اللَّبِن مرصوصةً بعضها فوق بعض، بين بيوتٍ للموتى أفضل منها حالًا، كان مظلومًا في حياته ومماته!

جلسنا أنا وهي قُبالَة المقبرة، وكان أغلب من يحيط بنا نسوةً، كُلٌّ برفقة عيالها أمام الميت الذي يخصُّها، وأدعية وآيات تُتلَى بصوتٍ خفيض، بمجرد حركة الشفاه، والعِيَال وإن كانوا لا يدركون، فمنهم مَن يحبو بفرحة أو يلعب ويضحك أحيانًا إلَّا أن كل هذا بحساب! كان

الواحد منهم يَعَضُّ على شفته ويتلفَّت حوله حرَجًا إذا زاد عيار ما يصدر عنه، فعلى جهالتهم وصِغَر أعمارهم كانوا يشعرون بالرَّهبَة ويعطون المكانَ حقَّ قَدْرِه! وانخرطتُ أنا في نهنهةٍ شجيَّة..

بكيتُه وبكيتُ حالي من بعده، ودار شريط حياتي كله أمامي؛ يوم كذا عندما ذهبنا معًا إلى قصر لطفي باشا شبار ويومَ أن فعلنا كذا وكذا، ويوم ويوم، وأثناء مرضه الأخير.

إحساسي باليُتْم تضاعَفَ خلال هذه الدقائق التي جلستها؛ فمِن بعدك يا أبي صارتِ الدنيا أضيَقَ من سَمِّ الخِياط، لا أُمَّ ولا حاضر أو حتى مستقبل، لم أعُد أفرِق عن أيَّةِ نبتةٍ بلا جذور، فبقصدٍ أو غير قصد قد تسحقُها أقدام عابر سبيل، أو تلوكُها دابَّةٌ تمرُّ عَرَضًا!

وعُدْنا إلى البيت أنا والعَمَّة لأسافر في اليوم التالي، وكانت المفاجأة أن لحقتني الستّ فاطمة زوجة عمي قبل أن أعبر البابَ خارجًا.

احتوتني بين ذراعيها وضغطات خفيفة مُتحسّسِةً رأسي مرةً وكتفي مرةً أخرى، هذا اللُّطْف وهذا الحنان ليس كله لي، النيَّة والقصد كانا متجهَيْن لأبي، أكيد تذكَّرته أو ربما لاح أمامها بقامته وضحكاته وقتَ أن كان يضحك!

لم تكتفِ..

أعطتني ثلاثين جنيهًا، وهذا مبلغٌ كبيرٌ قياسًا على نقود ذلك الزمن، وأخرجت لي من ملابسها غويشة ذهب ملفوفة في منديل من مناديلها..

قالت: هذه تخصُّ حسَّان، هي لكَ الآن يا ابْن الغالي..

من الحياء تمنَّعتُ لكنها صمَّمتْ ووضعتْها عنوةً بجيبِ بنطالي، كانت تشعر بأنها تقوم بصنيعٍ جميل؛ فهذه الغويشة هي الشَّبْكة التي شَبَكها بها أبي غير أنه النصيب! هي من حُرِّ مالهِ وقد حاول أهلُها إعادتها إليه إلَّا أنه لم يقبل، وأبوه وأخوه الشناوي مندهشان ومعهما أهل فاطمة؛ لا يَعُون القصدَ ولا المعنى!

تعرفُ أني مأزومٌ كما أن حالي تُنبئُ بأني خالي الوفاض، ولربَّما أتصرَّفُ فيها وأستفيد بعائدها..

ضحَّت بذكرى غالية عليها لعَوَزٍ يعاني منه أقرب الناس إلى أبي، ابنه، ابنه وإن لم يأتِ من ظهره، وهي حبيبته، حبيبة القلب والخاطر ولا همسة أزيد، نحن الثلاثة، أنا وهي وأبي، جمعتنا اللحظة برباطٍ لا يُرى غير أنه أشد وأقوى من أي وِثاق آخر يعرفه الناس، والعمة عيناها على الغويشة وتراقب ما يجري بغرابة، رأسُها خالٍ من أي معنى هي الأخرى مثلها مثل باقي أهلها وأهل فاطمة، وعيناها تقولان إن هذا كثيرٌ عليَّ وليس له لزوم..

هذا فضلًا عن أن هذا الموقف أحرجها؛ اضطرَّها أن تواكب وتمنحني خمسة جنيهات ولم يكن هذا في حُسْبانها!

على العموم وقياسًا على ظروفها هذا الفعل يُحسب لها..

هذه الغويشة هي التي صادروها مني وقتَ ارتكابِ فعلتي في حقّ أمي وعشيقها، هي كل ما خرجتُ به من شقة بورسعيد التي كنتُ أعيشُ بها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

١٩

خلَّفتُ بيتَ العمَّة تاركًا نفسي للأقدار..

ومَنْ أحَنُّ منها! قيَّضت لي العمّ شطا وزيَّنت لي السفر إليه بالإسكندرية، فما إن خطوتُ خارجًا حتى لاح لي هذا الرجل الهُمام بالهيئة التي طالما رأيته عليها في صغري؛ الحَدَب الذي بأعلى ظهره وقميصه النصف كُمّ والكاسكتَّة، طيفه هو الذي بدأ وخايلَني، فعن نفسي لم أستدْعِه أو كان في حساباتي من أصله، كان نائمًا نومة أهل الكهف في قاع الذاكرة وآخر مرَّة شاهدتُه فيها كنتُ في الرابعة أو الخامسة ابتدائي؛ أي قبل أكثر من خمس سنوات، وهذا الرقم بالنسبة لي حسبة ضخمة؛ فعمري كله يوم أن توجَّهتُ إلى الإسكندرية كان ستَّ عشرةَ سنةً إن لم يَكُن أقلَّ.

عَمّ شَطَا ساكن قديم من سكان شارعنا بحَيّ العرب ويعرفه كما يعرفُ كَفَّ يده، فالشارع كله وأول عن آخر عَشر بنايات تنتصبُ بعضها قُبَالةَ بعض، وشارع مفضوح لا أسرار فيه؛ كل واحد من سكانه يعرف خبايا الآخر: ماذا أكل وماذا شرب، حتى صنف الدُّخَان الذي يتعاطاه.. الرجل بالتالي يعرف أبي، يعرفُني أنا الآخَر، والفار طبعًا، وعلى إلمامٍ أيضًا بسيرةِ أمي غير أن إلمامه قليل فقد هاجَر إلى الإسكندرية مبكرًا، بعد نكسة ٦٧ مباشرةً، ولم تكُن أمي قد استفحلت وزكمت الشارع برائحتها.

هو الآن صاحب كُشْك للسجائر والمُرطِّبات بمنطقة «رشدي» حسبما كنتُ أسمع، سافرتُ إلى الإسكندرية وطفقتُ أبحثُ وأسألُ حتى اهتديتُ إليه وتعلَّقتُ به مثلما يتعلَّقُ الغريق بقشَّة، وكان ظنِّي به في محلِّه أو ربما الأقدار تساعد، أيًّا ما كان، أكرمني وساعدني على المعيشة، صحيح عملتُ في أتعس المِهَن غير أن حُنُوَّه يسَّر لي أمري، ولا أنسى أنه السبب في عدم تفريطي في الغويشة الذهب؛ احتفظ لي بها في بيته زُهاء ثلاث سنوات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بقيتُ معه بالإسكندرية..

دبَّر لي غرفة على سطوح إحدى العمائر بمنطقة «بَحْري»، لم أحُزْها وحدي؛ فمن أين وأنا لا أزال على باب الله! شاركني فيها اثنان من الأرزُقيَّة؛ بائع سرِّيح وصبيٌّ في محلّ ألبان، وكان العمُّ شطا لا يزال محتفظًا بشقته في بورسعيد ويتردَّدُ عليها كلَّ عدَّة أشهُر، يقضي فيها أيامًا ويعود، التقى هناك بالفار؛ كذلك أمي رآها ورأته غير أنه لم يبلغها بمكاني وأني تحت رعايته؛ استنتج من كلامي أني هارب منها وحفظ سِرِّي.

وشهر في آخَر وسنة في التالية وترتاح النفوس وترتفع المعنويَّات بنصر ٧٣، والعمُّ شطا موزَّع بين العودة إلى بورسعيد أو الاستمرار في الإسكندرية، استقرَّ هنا، أصبح له جيرانٌ وأصحابٌ ومعارف وابنته على وشك الزواج من أحد الإسكندرانية، كما أن الكُشْك يدرُّ عليه بأكثر مما يتحصَّل عليه أي مدير عام بالحكومة، أنا أيضًا صار لي أصحابٌ ومعارف وغَزَل خفيف مع فتاةٍ أتعشَّم في الارتباط بها، أحوالي الماديَّة كذلك تحسَّنت بعض الشيء في سنتي الأخيرة؛ سمسرة على فهلوة على شقاوة حتى إني ادَّخرتُ مبلغًا لا بأسَ به في البوستة، لكن كل هذا في كِفَّة ورغبتي في الثأر لنفسي ولأبي حسَّان في الكفـة الثانية، لن أدخل الآن في الصراع الذي اشتعل بصدري حول هذه الانحناءة المفصلية؛ باختصار أخْذ حقي وحق المغدور به أبي هو الذي غلب، وصمَّمتُ على الرجوع.

وكان آخر لقاء لي بعَمّ شطا أول خطوة على هذا الطريق؛ إذ رجعتُ إلى بورسعيد اليوم التالي مباشرةً، من الفجر وربما من قبل الفجر وأنا أتهيَّأ للسفر، هذا إذا كنتُ نمتُ من الأساس، جمعتُ ما يصلح من مُتعلَّقاتي في حقيبة وعدَّة أكياس وطِرتُ إلى محطة سيدي جابر، ثم خمس ساعات بالقشَّاش وكنتُ بباب الحديد.

وللإحاطة فإن هذا اللقاء لم يكُن مرتَّبًا، لمجرد أن أسأل عن الرجل فقط؛ إذ كان ببورسعيد وعاد منذ أيام، لمحتُه محنيًّا يغلق أقفال الكشك استعدادًا للانصراف، وما إن انتبه لصوتي وأنا أناديه حتى

التفت بفرحة وجذبني إلى صدره:

ـ إنت فين؟ تعالى تعالى دا أنا عندي لك حتة خبر!

ويتأبَّط ذراعي بادئَيْن في الحديث والسير بخُطْوٍ مُتمهِّل:

ـ أنا فاهم طبعًا إن فيه حبّة زعل بينك وبين الست الوالدة، وفاهم كمان إنك قلقان من قعدتها لوحدها هناك في بورسعيد، ما هُو احنا كده مهما الواحد مِنّنا خد على خاطره وزعِل من اللي له...

واستطرد في كلامٍ مُرسَلٍ إلى أن زَفَّ إليَّ الخبر:

ـ خلاص فُرِجت يا عادل، الست والدتك اتجوِّزت وعايشة ومتهنيَّة دلوقتي أربعة وعشرين قيراط!

وأنا أتابع حركة شفتيه التي لم تفرغ بعد:

ـ وتعرف من مين؟

لم يَدَعْني أُخمِّن، هذا إذ كنتُ أنا مشغولًا بتخمين مَنْ هو العريس وفقما يظنُّ!

ـ من الحاج زكريَّا الفار، إيه رأيك بقى مش جوازة حلوة!

يلحَظ أن عينَيَّ شردتا..

ـ زكريا الفار! الحاج زكريا صاحب العمارة بتاعتكم، إنت نسيته ولَّا إيه!

أُجاريه:

ـ أيوه. أيوه. افتكرته.

وهو يزكِّيه:

ـ راجل سَبْع ومقتدِر، هو دا اللي هيقدَر عليها ويمشّيها صَح!

وتوقَّف ضاغطًا بأسنانه على شفته؛ شعرٍ بأن لسانه تسرَّع ورمقني ورمقتُه، رغم مقتي وكراهيتي لأمي فضلًا عن الخبر الذي سمعتُه، فإنني أحسستُ بالإساءة للتجاوز في حقها، أمي مهما كان

والتعريض بها يضايقني، أنا أقول ما أشاء، لكن غيري لا؛ لكني مرَّرْتُها فالعَمُّ شطا لا يقصد، كما أن مسألة زواجها ألهتني وحالت دون أن أسترسلَ في هذه النقطة.

الزواج لا شكَّ سُتْرة، صفحة جديدة لها أمام الناس، غيرَ أنَّ وَقْعَه عليَّ وتحديدًا من هذا العريس كان كئيبًا..

قلتُ:

ـ ما شاء الله! اتجوّزوا..

هذه هي العبارة التي تفضَّل بها عليَّ لساني، وتغير وجهي والعَمُّ شطا يتابع بدهشة:

ـ مالَك؟ يعني لا فرحت ولا حمدت ربنا ولا ولا، وأنا اللي كُتّ...

ـ لا. لا. مفيش. خير إن شاء الله!

وخلَّفتُه وانصرفت..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فعلًا تضايقت..

نفرتُ من هذا الزواج، ولو كان هذا الفَلَاتي هو وعروسه يمضيان أمامي هذه اللحظة لمزَّقتُهما بأسناني..

هو زواج على سُنَّةِ الله ورسولِه، مأذون وشهود وكَتْب كتاب، ولو رجعتُ إليهما مُبارِكًا مبتسمًا ستكون الفرحة عشر فرحات، وبالتأكيد سوف أستفيد وتمضي بي الحياة بأفضل ممَّا هي عليه الآن..

غير أني رفضتُه..

فلا ثُمَّ لا وفوقهما لا ثالثة يا أولاد الأفاعي!

تزوَّجتما وفرحتما وسترتما نفسيكما، نفضتُما الرَّوَث العالق بكما أمام الناس، لا يهمكما سوى الناس! فُلانة الجارة وعِلَّانة التي تتردَّد على العمارة وهذا وذاك من سكان الحارة، نعم حارة! فشارعُنا

شارع تافه هلفوت لا يزيد على كونه حارةً..

تريدان الضحك على الناس بهذا الشيخ ذي العمامة والكَاكُولَة الذي عقدَ القِرَان، وبهذا العقد الذي أودعتماه أضابير الحكومة!

ورَبُّ الناس، ماذا ستقولان له؟

وأنا!

أنا أين حقي؟!

حق ذلك الكائن النوراني الذي يعيش فيَّ، لا أعرف أيٌّ من هذه الأسماء اسمه الصحيح، قلب، ضمير، رُوح، عقل باطن، ولا أعرف بالضبط محلَّ إقامته، يسبَح مع الدماء، في النُّخاع، بغُرَف القلب، هالة فوق الرأس، لا أعرف سوى أنه حَيٌّ يُرزق، وأنه من أصحاب العزم، وشديد، هذا الجبَّار والذي قد يبدو كأنه بعضي وجزء مني إلا أنه بمعزل عني بل وأقوى مني، هذا الجبَّار كيف أُرْضِيه!

أنا ضعيف حيالَهُ، يَصمُني كُلَّ يوم، كُلَّ دقيقة، وفي الصحو والمنام، يَصِمُني بأني ابنُ عُهْرٍ وفِراشٍ ولحظاتِ لذَّة، هل عندكما حَلٌّ لذلك؟

مهما فعلتما لي، أورثتماني العمارة وورشة النِّجارة وكل ما تملكان، مهما! مهما! أنا مكسورٌ أمامه..

ثم أبي الشاويش حسَّان، أين حقُّه؟

غافلتماه، في حياته كان فِرَاشُه وكرًا لكما، وبعد مماته تسرقان ابنه، فأنا ابنه هو، ألَا تفهمان، لستُ ابن زكريَّا يا حيوانات! ولا تفسير عندي للزواج الذي عقدتماه سوى أنه غطاءٌ يخفي طعامًا فاسدًا، تبييض أموال حرام في تجارةٍ أو بنكٍ من البنوك لإكسابها المشروعية..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

٢٠

سكنت الحركة في أمي عندما رأتني بباب الشقة..

ولا حتى نطقت بكلمة..

تعطَّلت، فأَنْ أرجعَ هذا الذي لم يخطر لها على بال! ثم ارتمت عليَّ بجسدها كله، وبينطال منامة خرج علينا زكريا الفار من غرفته، غرفة أبي حسَّان سابقًا، استقرَّ هنا، نعم استقر، فشقتُه الأصلية أول شيء ركَّزتُ عليه وأنا صاعدٌ على الدَّرَج، بابُها كان مفتوحًا عن آخره وحركة ومكاتب أُناسٌ يجلسون خلفها، يبدو أنها أُجِّرت لمُحامٍ أو محاسبٍ أو شركةٍ من الشركات.

فوجئ بي مثلما فوجئت أمي؛ تصلَّب في مكانه تقريبًا، أنا أيضًا فوجئتُ أو تحديدًا كمَنْ فوجئ رغم أن وجوده مسألة مفهومة، فيبدو أن الخرائط التي تملأُ رأسي عن الشقةِ وكل شقّ فيها ارتبكت؛ لم تستوعبه لا هو ولا منامته والبشكير المعلَّق على كتفه، استغربت وجوده عندنا وبكلِّ هذه الأريحيَّة، أو على الأقلِّ لحظَةَ أن دخلتُ!

انهال عليَّ ـ بعدها ـ تقبيلًا وأحضانًا ويَرجُّني رجاتٍ عصبية، رجاتٍ بعنف، تصرفات أُناسٍ منفعلين إلى أقصى درجة، أمي نفسها لم تفعل ما فعل؛ بدَا كجارحٍ من الجوارح التي تطير في السماء وانقضَّ على ما يحسب أنه يخصُّه، وأنا مُتخشّبٌ في يده كالحال التي كُنْتُها مع أمي.

ومثلما راحت عيناي إلى شقته وأنا على بَسْطة الدور الأول، راحت أيضًا إلى موضعٍ بحائط الصالة معلَّقة به صورة للأب حسَّان، لم أعثر عليها، الآثار فقط، المسامير التي كانت تحمل البرواز وما زال الدهان الذي كان خلفها بزهوته وليس باهتًا كباقي دهان الصالة؛ استبدلا بها في موضعٍ آخَر بالجدار صورةً لهما وهما جالسان على أريكة، عيناه فيها مفتوحتان على آخِر اتساعهما؛ إنسان لا يفهم، يحدِّق بجهلٍ وشراهةٍ في عدسة الآلة على اعتبار أن هذا هو الوضع الأمثل للتصوير! وهي تضعُ يدها على رُكبته ومَنْحَر فستانها أوسع

من اللازم.

ولا وجودَ للكنبتين والمقاعد ولا أي شيءٍ من الأشياء التي تعوَّدتُ عليها، طقم صالون مُذهب هو الذي يملأ المشهد الآن ومنضدة كبيرة غير اثنتين أصغر وتعلوها جميعًا قِطَع الرخام، وبأحد أركان الصالة مستلزمات الفرفشة والمزاج؛ شيشة محترمة، واضح من النقوش التي تزخرِفها أنها «عُمُولة» وحولها فوق البلاط المشتملات كافةً؛ إناء النار، قِطَع من الفحم، مَاشَة، حِجَارة جاهزة ومرصوصة، غير ستة أو سبعة أكياس معسّل لا تزال في أغلفتها، أما الصنف ذاته فلا أعرف أين يخبِّئه، ابن الكلب حوَّلَ بيتنا إلى غُرزَة!

يفعل ما يشاء، الزمن زمنه والبيت بيته..

لكن ربُّكُم والحق تألَّمتُ لغياب الكنبتين بالذات؛ عزيزتان عليَّ، ففي أثناء غيابي بالإسكندرية ما سرحتُ في شقتنا مرةً إلَّا وكانتا أول الحضور، لا أعرف مآلهما الآن، بيعتا، رُميتا، الله أعلم! هما مجرد ألواح من خشب في مسامير في غراء وقطن إذا حسبنا الحَشيَّة والمساند، إلَّا أن ظفرهما عندي برقبة زكريَّا وجَدِّ زكريا ذاته!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لبثتُ مع زكريا وامرأته سنةً بأكملها..

ألين يومًا وأعصاهما عشرة، عصياني لطيفٌ لا أذى فيه؛ أبتعدُ عنهما، أسرَح مع نفسي، أهيمُ في عالَمٍ افتراضي هما أحد أطرافه، وأنا وأبي الطرف المقابل، نحن فقط شخوصه المحورية..

أحلام اليقظة جميلة، نعمة من الخالق!

أخذتُ حقي فيها بالكامل؛ رَكْل، بَصْق، وأحيانًا كنتُ أنهالُ عليهما بالشبشب الذي في قدمي، ثم بدأتُ أقتل، بعصا، بسُمٍّ يوضع في مشروب، مدفع رشَّاش أو من نوع الـ «آر بي چيه»، وقد أركِّزُ على السكاكين وطعن طعن حتى تخرج منهما الروح.

وقد إخالهما ضحايا حادث، سيَّارة مسرعة، حجر يسقطُ على

رأسيهما من أعلى، منشار يقطع يدَ الفار في لحظةِ غفلة، أو يتسرَّب غاز الأنبوبة وهُسّ هُسّ ماتا، ولم أكُنْ أبخل على أبي حسان! أشركته هو الآخَر، وكان ماهرًا ضرباتُه لا تخيب؛ أخذ حقَّه بالخردلة وأنا أرمقُه بإعجاب!

وتزداد المتعة عندما يحدث هذا أثناء جلوسي معهما، عيناي عليهما، أُذُناي أيضًا تسمعان ما يقولان، لكن فصَّ رأسي المشغول بهما هو الأنشط، «دبُّور» الجلسة! لا أعرف بالضبط أين موقعه، في يمين الرأس أو يساره أم بِقاع الجمجمة، نكون نحن الثلاثة مشغولين بالثرثرة وتبادل أكواب الشاي وربَّما نقهقه، وهذا الفَصُّ المناضلُ أو هذا الدبور منهمك في عملية خنق لذيذة، أو وَضعَ سلاحًا في يدي وصدر منه الأمر بأن أبدأ؛ ينعكس هذا الانفعال بالطبع على صفحة وجهي، يلاحظان أو أحدهما يلاحظ، وتقول لي أمي وهي تتحسَّسُ كتفي أو ربما هو الذي يقول:

ـ مالك! سرحان في إيه؟

أتمالك نفسي بسرعة:

ـ لا. لا. مفيش، مانا متابع معاكم، مش قصدكم على...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سنة!

ثلاثمائة وخمسة وستون يومًا وأنا على هذه الحال، لم تخمد فيَّ أبدًا شعلة الانتقام، أما الفعل ففي الخيال! فلم آخُذ أيَّ خطوةٍ إلى الأمام أو تجهَّزتُ بعملٍ تحضيري؛ مُدْيَة مثلًا أو ابتعتُ سُمًّا من أحد العطَّارين، وإلَّا كيف يموتان! إلى أن جاء اليوم المنشود أو المشئُوم أو.. أو.. فالمسألة تخضع لزاويةِ النظرِ ومَن يتعاطف معي أو لا يتعاطف، غير أنها بالنسبة لي كانت محسومة؛ فهو اليوم الذي ارتحتُ فيه ورُدَّت إليَّ نفسي، وها أنا أقفُ في قفص المحكمة دون اكتراثٍ بحكمٍ سوف يصدُر أو قُضاة يتداولون أمري!

كان يوم أحَد، يوم العُطْلة الأسبوعيَّة للورشة والفار معنا في البيت،

استيقظتُ قُرَابَة الساعة الواحدة ظهرًا، فهكذا حالي أنام وأصحو وقتما أشاءُ.. قمتُ على أغنيةٍ عجيبةٍ آتيةٍ من راديو الصالة اسمُها: السَّحّ الدَّحّ إمبو!

«عدويَّة» في حالة جَلْجَلة، وهما يضحكان ويغنِّيان معه..

أمي تقول: السح الدح إمبو!

والفار وراءها: ادُّوا الواد لابوه!

ثم أمي: يا عيني الواد بيعيَّط!

والفار: ادُّوا الواد لابوه!

ادُّوا الواد لابوه!

فما الرأي؟!

تعكَّرتُ طبعًا وانتفض الدمُ في عروقي، ولا أعرف السبب بالضبط، هل للصوت العالي للراديو والذي بكل تأكيد وصل إلى الشقق المجاورة، أم للكركرة والانسجام اللذين كانا فيهما، أو ربما لكلمات الأغنية وكأنها تمسُّني، وأكيد أيضًا للقباحات ولكلامٍ مكشوفٍ كانا يقولانه عن فشله هذه الليلة، ووعد بأن يثبت لها أنه سوف يكون أسدًا المرة القادمة، أم ليس لكلّ هذا وإنما للكآبة التي أكون فيها كلَّما صحوتُ من النومِ ولساعةٍ كاملةٍ إلى أن أُفيق!

وارتديتُ ملابسي على عَجَلٍ مُصمّمًا على ترك البيت، أذهب إلى أي داهية الآن! وما إن رأياني أدفعُ الباب خارجًا من غرفتي حتى هلَّلا مُرحِّبيْن وأشارا لي بأن أنضمَّ إليهما وأشارك في هذه المعمعة، أومأتُ إليهما بأن دقيقة وأرجع؛ كنتُ أرغبُ في دخول الحمَّام أولًا ومنه إلى الخارج وفقما قرَّرت.

العزم على القتل، أقصد على فعل القتل، وُلِد هذه اللحظة بالضبط!

وُلِد عَفيًّا وبكامل صحته، ليس فيه همسة تردُّد ولا ذرَّة تخاذل، وتحوَّلتُ من «عادل» المنكمش المقهور إلى غضبٍ جامحٍ يمشي

على قدمين، متجهًا نحو المطبخ لا الحمَّام الذي كنتُ أقصده..

يدي تسحب سكِّينًا وتدخل بها عليهما، الفار هو الذي انتبه؛ اتَّسعت عيناه وتصلَّبت رقبتُه، ردَّة فعله اللحظيَّة هذه استغرقت ثانيتين أو ثلاثًا على الأكثر، وشرعتُ أنا في الطعن؛ طعنتُ أمي طعنتين، لم تستطِع الدفاع عن نفسها ولا أنا أكملتُ؛ الدماء التي سالت أرعبتني وحجَّمت يدي، إذ بدأت السِّكِّين في الارتعاش وضعُفت سيطرتي عليها، وقبض هو عليَّ من الخلف، تخلَّصتُ من ذراعيه وبدأت التعامل معه غير أنَّ طعناتي لم تكُنْ مؤثِّرة؛ دفقة العنف خَبَت فيَّ بعض الشيء والسكِّينُ التي تهتزُّ في يدي خيرُ برهان، كما أنه أشدُّ مني ولو ضغط لكان أذاني، تعامَلَ معي بثُلُثَيْ قوته فقط، حاشَ عن نفسه لا أكثر، والراديو لا يزال يعمل وصوتهُ عالٍ، فمَن الذي يغلقه! عدويَّة حسم لي المسألة وذهب وبدأ المذيع في تلاوة موجَز لنشرة الأخبار.

ورَزْع رَزْع ودَفْع للباب الخارجي للشقة؛ انكسر الكالون وتدفَّق علينا الجيران وكُلُّ مَنْ كان يصعد أو يهبِط على دَرَج العمارة بالمصادفة، الزبَّال مثلًا الذي جاء ليتحصَّل على أتعابه الشهريَّة دخل مع مَنْ دخلوا، محصِّل النور أيضًا كان أحد الشهود، ما تبقَّى بعد ذلك كل الناس تعرفه؛ البوليس والنيابة والمحكمة، كله كله معروف..

هل ضاع مستقبلي؟ بكُلِّ تأكيد..

أأنا نادم؟ لا. لستُ نادمًا؛ فسجنُ الحكومةِ أرحَمُ من السجن الذي كنتُ فيه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

من فتحات قفص المحكمة حيث أقف، ألْحَظُ الحركة وانصراف الجمهور، المنصَّة أيضًا لا أحد يجلس وراءها، والحارس يقبض على يدي ليُعيدَني إلى حيثُ كُنْتُ وأنا تائهٌ أحدِّقُ فيه وفيما حولي، يستنتجُ أني لم أستمع إلى قرار المحكمة فيعيدُه عليَّ:

ـ النُّطْق بالحُكْم الجلسة الجاية وعليك خير..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صدر للمؤلف

أولًا: الأعمال الأدبية

• لقمة العيش: مجموعة قصصية ـ طبعة دار النسر الذهبي سنة ١٩٩٠، طبعة دار النيل سنة ٢٠٠٥، طبعة وكالة سفنكس سنة ٢٠١١ ـ وقد فازت قصتان من هذه المجموعة بالجائزة الأولى لنادي القصة عامي ١٩٩٧، ١٩٩٨.

• قلوب منهكة ـ المسلم اليهودي: رواية ـ طبعة دار النيل سنة ٢٠٠٢، طبعة وكالة سفنكس سنة ٢٠٠٩، ست طبعات لدار العين للنشر أعوام ٢٠٢٠، ٢٠٢١، ٢٠٢٢، وقد نالت جائزة الدولة التشجيعية سنة ٢٠٠٢، كما صدرت ترجمتها الإنجليزية من الجامعة الأمريكية سنة ٢٠١٣، بعنوان: *(Diary of a Jewish Muslim)*. وقد نَفَدت هذه الطبعة وأعيد نشرها في طبعة جديدة سنة ٢٠١٨، كذلك ترجمت الرواية إلى اللغة الألمانية، ونشرتها دار فيلتن *(WELTEN)* سنة ٢٠١٧، وعنونت باسم *(ErschöpfteHerzen-Der Muslimische Jude)*. وتُرجمت أيضًا إلى اللغة الأرمينية سنة ٢٠٢١، بتنسيق بين الجامعة الأمريكية بالقاهرة ودار نشر *ANTARES* بأرمينيا.

• أيام الشتات: رواية ـ طبعة وكالة سفنكس سنة ٢٠٠٨، ست طبعات لدار العين للنشر أعوام ٢٠٢٠، ٢٠٢١، ٢٠٢٢. وقد صدرت ترجمتها الإنجليزية من الجامعة الأمريكية سنة ٢٠١٢، بعنوان: *Days in the Diaspora).)*

• أحلام العودة: رواية ـ طبعة وكالة سفنكس سنة ٢٠١٢، ست طبعات لدار العين للنشر أعوام ٢٠٢٠، ٢٠٢١، ٢٠٢٢. وقد صدرت ترجمتها الإنجليزية من الجامعة الأمريكية سنة ٢٠١٧، بعنوان: *Menorahs and Minarets).)*

• حارة المليجي: رواية ـ طبعة وكالة سفنكس سنة ٢٠١٤، وطبعة للهيئة العامة للكتاب سنة ٢٠٢١.

• أيام لا تُنسى: رواية ـ طبعتان لدار العين للنشر عامي ٢٠١٨ ـ ٢٠٢٣، وقد حازت الجائزة الأولى لاتحاد الكتاب في الرواية سنة ٢٠٢١

• قهوة حبشي: رواية ـ طبعتان لدار العين للنشر عامي ٢٠١٩، ٢٠٢٢.

• بورسعيد: رواية ـ طبعتان لدار العين للنشر عامي ٢٠٢١، ٢٠٢٢.

• دكاكين تغلق أبوابها: رواية ـ طبعة دار العين للنشر سنة ٢٠٢٢.

ثانيًا: المؤلفات القانونية

• السلطة في الفكرين الإسلامي والماركسي: دار النهضة العربية، سنة ١٩٨٦. وقد حصل هذا المؤلَّف على جائزة أفضل بحث قُدم لكلية الحقوق ـ جامعة القاهرة ـ عام ١٩٨٧.

• النظم السياسية والقانون الدستورى: مطبوعات جامعية، سنة ٢٠٠١.

• القانون الإداري: مطبوعات جامعية، سنة ٢٠٠١.

• المدخل للعلوم القانونية: مطبوعات جامعية، سنة ٢٠٠٢.

• الإدارة العامة: مطبوعات جامعية، سنة ٢٠٠٢.

• الأساليب الدولية لمكافحة التهريب والاتجار غير المشروع فى المواد المخدرة: مطبوعات جامعية، سنة ١٩٩٥.

ثالثًا: ما كتب عن المؤلف

• اللذة والمتعة ـ قراءة في سرد كمال رُحيِّم، دراسة نقدية للدكتور محمد علي سلامة: دار العين للنشر سنة ٢٠١٩.

• تقنيات السرد الروائي عند كمال رُحيِّم (روايات أيام الشتات وأحلام العودة وحارة المليجي نموذجًا): رسالة ماچيستير بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة الأقصى ـ فلسطين ـ سنة ٢٠١٦.

• جَدَلُ السَّرْدِ وَأَزْمَةُ الهُوِيَّة ـ قِرَاءَاتٌ نَقْدِيَّةٌ في ثُلَاثِيَّةِ اليهود لكَمَال

رُحَيِّم: دراسة نقدية تقديم الدكتور سامي سليمان أحمد وتحرير الدكتور تامر فايز، دار العين للنشر سنة ٢٠٢٢.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفهرس..

عن الرواية..
إهداءٌ..
١
٢
٣
٤
٥
٦
٧
٨
٩
١٠
١١
١٢
١٣
١٤
١٥
١٦
١٧
١٨
١٩
٢٠

Notes

[←1]
باعتبار أن هذا الحق أحد المقاصد الأساسية للقانون، ومَحميٌّ بنصوص عقابية.

[←2]

انقرضت الآن.

وكسة الشاويش

أنا عادل حسّان العطفي..

كان أبي سيدًا من سادة الكون في نظري، صعب عليّ أن أراه ضئيلًا مكسورًا وكالمذنب في يد امرأة ولو كانت أمي. كان أبي شاويشًا، وكنتُ وقتها مشوشًا في فهمي لعلاقة أمي بالمدعو الفار. مشتتًا بين استكبار وغضب. كان هذا عالمي، عالم الصغار ناقصي الوعي. أستثار فقط عندما يشاركني أحدٌ في أمي. كانت هذه مشكلتي: والآن كبرت بعض الشيء، وصار غضبي غضب الضئيلة الذين يحطون نحو سن الشباب، بقي معي الاستكبار والغضب ولازماني منذ الصغر، ولحق بهما التوحُّس ولحق بالغضب غضبٌ أشد، حتى بدأت المأساة..

«وكسة الشاويش» رواية تكشف عن تفاعلات نفسية وتشابكات مجتمعية يسبحها الكاتب الروائي الكبير كمال رحيم عبر لعبة سرد مثيرة مشغولة بأناقة مدهشة.

كمال رحيم: كاتب وروائي، حاصل على درجة الدكتوراه في القانون من جامعة القاهرة. وقد صدرت له خمسة مؤلفات قانونية، وإحدى عشرة رواية، منها ثلاثية اليهود (المسلم اليهودي، وأيام الشتات، وأحلام العودة)، والتي تُرجمت إلى ثلاث لغات (الإنجليزية، والألمانية، واللغة الأرمنية)، وقد حصل على العديد من الجوائز، منها: جائزة نادي القصة (أربع مرات: عن قصصه القصيرة)، وجائزة الدولة التشجيعية في الأدب سنة ٢٠٠٥، وجائزة اتحاد الكتاب في الرواية سنة ٢٠٢١، ثم جائزة الدولة التقديرية في الأدب سنة ٢٠٢٢ عن مُجمل أعماله.

تصميم الغلاف: عبد الرحمن الغواف

9 789770 938560

دار الشروق
www.shorouk.com